الأوتيزم (Autism)

قضايا عصرية

إعداد

أ.د/هشام عبد الرحمن الخولى

(أستاذ الصحة النفسية والتربية الخاصة

كلية التربية جامعة بنها)

الأوتيزم (Autism)

قضايا عصرية

إعداد

أ.د/هشام عبد الرحمن الخولى

(أستاذ الصحة النفسية والتربية الخاصة

كلية التربية جامعة بنها)

مشكلة المسمى بين الترجمة والتعريب:

على الرغم من تعدد وتنوع الدراسات والأبحاث فى مجال الأوتيزم لم تستطيع إستجلاء ،وبيان ما يطويه هذا اللغز المحير، والملقب بالأوتيزم أو الخطر الصامت، فأطفال الأوتيزم بحسب السياقات البيئية يشكلون فى الواقع انتظامات متباينة وحتى وإن كانت متماثلة. فهذا اللغز من جانب ،وهذا الخطر الصامت من جانب أخريحتاج من أصحاب الفكر العميق ،والمهارات المتنوعة المفتوحة،إلى تقبل كل التوقعات ،حتى يستطيعون الغوص بفكرهم فى عميقات الأمور، وفراسة ،فى تناول جوانب هذا اللغز وما ذلك على الله بعزيز.

ويعد الأوتيزم من الظواهر الإنسانية القديمة، التى ظهرت فى ثوب جديد فى عصرنا الحالى، بإعتبارها صورة خاصة من ظواهر الحياة الإنسانية ،التى لها خصوصيتها، لها قوانينها الخاصة، ومناهجها الخاصة فى البحث،والدراسة ،تختلف عن تلك التى تصدق على الظواهر الإنسانية الأخرى.ومن هنا كان لزاماً على المشتغلين والمهتمين بهذه الظاهرة ،أن يجدوا ضالتهم المنشودة فى ترسيخ قواعد علم يخدم البشرية ،حتى لا يتحول من علم إلى لا علم ، أو بمعنى أخر يكون ضد العلم. فمن اللامنطق أن نتذرع بالمنطق فيما لاسبيل إليه بالمنطق.

ومن الضرورى أن ندرك ونعترف بأن كل البرامج وكل التدخلات النفسية والإجتماعية بكل صورها وأشكالها تستمد أسسها من العلاجات النفسية المختلفة (التحليل النفسى،السلوكية،المعرفية،التيار الإنسانى) فمنها من إستند فى إعداد برامجه على التحليل النفسى ،ومنها من إعتمد على السلوكية سيان كانت تقليدية أو جديدة ،ومنها

من إعتمد على التيار الإنسانى بكل مدارسه الفرعية ،من جشطلت ،ومعنى، ودلالة....إلخ. وهناك من إتجه إلى تصميمات إنتقائية، فظهرت العديد من البرامج ،التى ربما تجاوز عددها عدد من قام بتصميمها، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر العلاج السلوكى، فيدخل ضمن العلاج السلوكى علاجات فرعية متعددة ، منها السلوكى المعرفى ، المعرفى السلوكى ، العقلانى الإنفعالى ،نظرية العقل ،السيكودراما ،علاجالدلالة،النمذجة،التشكيل،الغمر ،التفجرالداخلى،التحصين التدريجى،برنامج سن- رايز ،برنامج لوفاز ،التيتش،البيكس،والقصص الإجتماعية وغير الإجتماعية ....إلخ . ولكن هل هذا التعدد يعنى الثراء فى المعرفة والعلم؟ إذا كان الأمر كذلك لماذا لم نصل حتى الآن إلى تحديد أسباب محددة بعينها تكمن وراء ظهورالأوتيزم ،رغم كل هذا العلم ، وهذه المعرفة.

وفى بعض الأحيان نواجهنا صعوبات خلال رحلتنا فى البحث العلمى ،أحد هذه المشكلات تظهر عندما نتعرض لترجمة نصوص تتضمن مصطلحات تخصصية ، وإن لم نجد المصطلح العربى المقابل نجد أنفسنا أمام عدة إختيارات منها التعريب . لأن محاولات إيجاد مكافئات للمصطلح الأجنبى تزيد الأمر صعوبة ، حيث أن الصيغ المقترحة لترجمة المصطلح ربما تفتقر إلى دقة الدلالة ،وقد لايكون كافيا للتعبير عن المراد، وقد يعبر عن دلالة أو معنى أخر . وتزداد المشكلة فى عالمنا العربى فتتبدى فى التعددية وعدم الإستقرار والإفتقار إلى منظومة ومعايير موحدة بين الأقطار العربية .ومن الضرورى توحيد المصطلحات العلمية المعربة بعيدا عن مقولة خطأ شائع خير من صواب مهجور. فالعلاقة بين الترجمة والتعريب والمصطلح علاقة أصيلة قديمة لها دورها الفعال في تحقيق النهضة العلمية وإثراء حركة البحث العلمي، ذلك أن المصطلح ينتقل من لغة إلى أخرى إما عن طريق الترجمة أو التعريب ، والتعريب مصطلح قديم اكتسب دلالة جديدة في العصر الحديث، كان يعني صبغ الكلمة بصبغة عربية عند نقلها بلفظ أجنبي إلى اللغة العربية.

وتبرز مشكلة فى عالمنا العربى وهى مشكلة عدم توحيد المصطلح ، فهناك إضطراب فى توحد المصطلح ، حيث نجد أنفسنا أمام عدة مصطلحات عربية أمام مصطلح أجنبى واحد.

ولا شك أن تعريب وترجمة المصطلحات والإختبارات والمقاييس من ثقافة لأخرى إنما ينفتح بطبيعته لكثير من اللبس،ولا يقف اللبس عند كلمة تعريب أو ترجمة وإنما يتخطاها إلى ما هو

أبعد من بذلك بكثير لأن ذلك يستند إلى نظرة ميكانيكية مسرفة وإلى معايير خارجية. ذلك أن هناك مشكلة أساسية تلك المشكلة ترتبط بالثقافة فهناك فروق ثقافية وحضارية في مختلف البيئات، فعوامل البيئة، والتأثيرات الثقافية،والتنشئة ونظام التعليم والمناهج وطبيعة الدراسة فى المدارس والجامعات والطبيعة العقائدية وثقافة الأسر والعلاقات الأسرية وعلاقة الآباء والأبناء والنظام الغذائى والنظام العلاجى تتدخل وكذلك أيضًا الصراعات بين القيم. فإذا كان الأبناء (ذكور وإناث) ينشأون في بيت واحد، ويخضعون فيما يبدو لنفس العوامل البيئية فأنهم فى الواقع يتعرضون لتأثيرات مختلفة ،ومن ذلك ما تنطوى عليه إتجاهات الأبوين من الأبناء سواء من ناحية التمييز (الجنسى)، وما تحتمه القيم الثقافية من إختلاف سواء فى اللعب أو فى أدوات اللعب، وكذلك هامش الحرية.. إلخ وبالتالى إن ما يحدث من عمليات تعريب وترجمة الكثير ممن يستخدم فى الخارج خاصة فى المجال السيكولوجى لا يعدو أن يكون عملية خفض لما هو سيكولوجى ،فالمناخ ، والثقافة ، والعادات والتقاليد ،والتعليم ،والماضى ليس مشترك ،وعليه فلا يمكن بحال من الأحوال خفض سيكولوجية أى جماعة إلى حاصل جمع لسيكولوجيات أفرادها.

ويعد الأوتيزم واحدا من المفاهيم التى شهدت وما تزال سلسلة من التناقضات ،والازدواجية ،والخلط مع المفاهيم التى لا تمت بصلة من قريب أو بعيد بهذا الإضطراب النمائى الذى يصيب بعض الأطفال، أذكر منها على سبيل المثال ما هو شائع الآن من خلط بين مصطلحى التوحد Identification ومصطلح أوتيزم Autismإستناداً إلى القناعة الذاتية دون استناد إلى أدلة علمية يقينية ،ذلك أن الموضوعية الحقة تقتضى التأرجح ما بين الشك واليقين، كما أن ما بين الحذر والرجاء يأتى الصحيح ،ويعد المصطلح الشائع تحت مسمى التوحد والمعنى به Autism أبرز المصطلحات التى استخدمت بشكل غير دقيق ، ومن المثير للدهشة أن هذا الاستخدام قد شهد انتشاراً واسعاً فى العديد من البلدان العربية .هذا وقد ساعد على إنتشاره بهذا الشكل العديد من وسائل الإعلام المرئية والمسموعة والمقروءة ،مما يتحول بالإعلام من دوره الأساسى وهو تقديم معلومات للرقى بالناس إلى تقديم معلومات لإرضاء بعض الناس، هذا بالإضافة إلى عدم وجود ترجمة عربية لمصطلح Autism شأنه شأن مصطلح Hysteria هستيريا وغيرها من المصطلحات الأخرى على سبيل المثال لا الحصر تكنولوجيا، وديمقراطية ،وإسترتيجية ، وفلسفة ، وموميا، تلفزيون وغيرها .....إلخ.

فمصطلح autism أوتيزم هو إضطراب نمائى عصبى يظهر لدى بعض الأطفال وله العديد من الأسباب، ويتبدى فى العديد من الصور، وعلى الرغم من أنه قد أطلقت مسميات عديدة متنوعة على كلمة Autism نذكر منها : التوحد، الإجترارية، الذاتوية، وتعد كلمة التوحد (التوحدية) المصطلح الأكثر شيوعاً واستخداماً فى الدراسات والبحوث العربية. ومن الأخطاء الشائعة سيان كانت عن قصد أو غيرقصد عند إستخدام بعض الألفاظ الأخذ بالمعنى الشائع الذى غلب عليها ، وربما يكون هذا المعنى لا يعبر عن المعنى الحقيقى وخاصة للعامة و، وغير المتخصصين ، وربما بعض الباحثين المبتدئين ،وربما يترتب على ذلك غياب وحجب المعانى الأخرى للألفاظ ،وهى الأقرب إلى الصواب حال إستخدام المعنى الشائع . هنا يكون من الضرورى الرجوع إلى أصل إستعمال اللفظ لأنه قد يغلب معنى على لفظ ،هذا اللفظ موضوع لمعانى متعددة فتأخذه سنة (بكسر السين) أو علامة من العلامات المتعددة (إستنساخ جزئى متحيز) لتجعله خاصا بهذا المعنى .فإذا أطلق هذا اللفظ ربمالا ينصرف العقل إلا لهذا المعنى شأنه شأن الكثير من العمليات الأخرى عند البعض التى يقف عندها العقل ولا تؤثر فى الأحكام المطلوبة . وإذا كان أول العلم تصور أو تخيل ثم يأتى الحكم ،والحكم مصدره العقل فمن الأولى إستخدم ألفاظ دقيقة المعنى ،واضحة للعقل حتى لايقف عندها . وتفادياً للزخم ،والخلط ،والتداخل حيث أرى إستخدام مصطلح أوتيزم (تعريب وليس ترجمة) لوصف Autism ، كإضطراب نمائى عصبى حيث إن الترجمات الأخرى المستخدمة فى الدراسات والبحوث العربية بإستخدامهم لمصطلح التوحد ،ومصطلح التوحد فى اللغة العربية عند ترجمته إلى الإنجليزيةهو Identification.

مشكلة حقيقية تصعد بنا إلى أعلى درجات الهاوية لماذا يحدث تصارع وتناحر في الأيدولوجيات الفكرية فى علوم الميتافيزيقا (علوم ما وراء المادة) بينما يختفي الصراع في علوم المادة؟. في العلوم الإنسانية نرى متاهة الفلاسفة والمنظرين، ففى علم الأهواء والنظريات نجد أن كل فريق يعمل جدران وفواصل حتى لا يصل علمه إلى الأخر، بإعتبار أن كل فريق أو كل واحد يخدم هواه ،وذلك لإختلاف الطبيعة الإنسانية من مجتمع لأخر، فالميتافيزيقا تتبع الأهواء بينما العلم المادى يتبع الحقيقة . ولعل ميدان الصحة النفسية وعلم النفس أحد الميادين التى تأثرت كثيراً فى الآونة الأخيرة بالثقافة العامة السائدة فى مجتمعاتنا العربية التى تعترف بالإطلاق واليقين

بأكثر مما تعترف بنسبية الحقائق والموجودات، فهى لا تطيق معاناة إكتشاف الحقائق المركبة بقدر ما هى شديدة الحماس والإنحياز للحقائق البسيطة.

ولا شك أن نزعتها اليقينية والمطلقة تنزع إلى التأكيد والأحادية على حساب النسبية والتنوع ويبدو أن هذه الظاهرة الثقافية قد إنعكست بشكل سلبى على العديد من المجالات فى حياتنا، فلم يكن مستغرباً أن تتلون أفكارنا ومناهج تحليلنا ومواقفنا الفكرية والعلمية والإجتماعية والإقتصادية بهذه الرؤية القاطعة الأحادية اليقينية، وكانت النتيجة ما نشاهده الآن فى ميدان البحث العلمى حيث تضاءلت قدرتنا على تحمل الإختلاف وإدارته وسرعان ما يتحول إلى خلاف، وبدلاً من أن ندير إختلافنا بوسائل الحوار المعروفة أصبحنا نحسم خلافنا بأدوات أخرى باترة وقاطعة ونافية، أى إستبعدنا من مجال حياتنا حوار العقول وإقتصر الأمرعلى حوار العواطف الذى تكون نتائجه معتمدة على اليقين الذاتى لا العلمى وما يصاحبه من تعصب وعنف. وإستناداً إلى ما سبق أود أن أوضح أن إضطراب الأوتيزم وما شهده من خلافات وليس إختلاف حول المسمى السائد فى العالم العربى ، أى حالة الإذدواجية فى المصطلحات قد أثر كثيراً على منظومة الحياة، وعلى منظومة التفكير، وما صاحب ذلك من إختلال فى منظومة الحياة، وإختلال فى التفكير، فالعبرة بعموم اللفظ وليس خصوصية السبب. ويعد التركيز على خصوصية السبب دون الإهتمام بعمومية اللفظ من أوائل خطوات ضعف الإنتماء أو قصور الإنتماء للحياة العلمية ،حيث يكون الناتج ظهور مصطلحات خالية من المعنى، مصطلحات حية وميتة، فالمكان لا معنى له إذا افتقد إلى المكانة، فالذات الجسمية تفنى بينما الذات النفسية تبقى. فالمكانة تتبدى فى سعة الصدور وليس فى سعة القصور. هذا وتقتضى العملية العلمية الحقة أن نلجأ فى بعض الأحيان إلى التعريب بدلا من الترجمة لأن المعنى اللغوى يجب أن يتطابق مع الدلالة التفسيرية تجنبا لما قد يحدث من خلط وإزدواجية ،وهناك مصطلحات ليس لها ترجمة وإنما تعريبها يؤدى إلى الدقة والفهم من أمثلتها (هستيريا- نرجسية- تكنولوجيا – ديمقراطية — كلينيكية)...الخ .وخلال البحث والإطلاع وجدت من المستحيل ترجمة هذا المصطلح إلى التوحد وأن الحل يكمن فى التعريب شأنه شأن العديد من المصطلحات الأخرى كالهستيريا ، ووجدت أن مصطلح هستيريا بوجهيه الأجنبى والعربى واحد فهستيريا في اللغة الأجنبية مشتق من لفظ هستيرون وتعني رحم. ومن المثير للإعجاب أن القدماء المصريين هم أول من إكتشفوا مرض الهستيريا. هذا وقد أربكت مثل هذه الخصائص الثقافية السائدة فى المجتمع حركة البحث العلمى فى بعض

جوانبه، وأعاقت إنطلاق المجتمع فى العديد من المجالات. ساعدت كثيراً على تفشى أخطر أنواع الإستقطاب وهو الإستقطاب العلمى.

ورغم أننا نعيش الآن عصرًا جديدًا خاصة بعد أن تقدمت التكنولوجيات بشكل هائل وأصبح العالم من خلالها قرية صغيرة أصبح الكل يسمع الأخر، أصبح الكل يمكنه الوصول إلى المعلومات فى فيمتو ثانية، ورغم كل هذا التقدم الهائل إلا أن أخطر الأمراض فى العالم إنتشارا الآن الأمية والجهل، والجهل أصعب بكثير من الأمية، فالأمية تعنى عدم المعرفة، بينما الجهل هو معرفة ولكنها معرفة مغلوطه مقلوبة ومقولبة وعكسية والجهل دائما وأبدا يؤدى الى المتاعب والتشويه والتحريف .

ولكن لماذا أقبل الكثرة على ترجمة المصطلح إلى التوحد، الوحدوى، الذاتوية، ... إلخ

مع إعمال قليل من العقل والتعقل، فالبصر ليس كالبصيرة، كما أن الترادف لا يوجد في اللغة الواحدة، فالترادف عادة ما يكون بين لغتين كاللغة العربية واللغة الإنجليزية، والفارق كبير بين اللغة العربية وهي لغة إعرابية، والإعراب يعني البيان أو الوضوح فأبان يعني كشف وأوضح، وإذا ما رجعنا إلى لفظ التوحد نجده ترجمة لمصطلح فى اللغة الإنجليزية ،والتوحد من علامات السوية فإذا أردنا نهضة فلابد أن نتوحد، والتوحد مع القدوة مطلب من مطالب الحياة والنمو الصحيح، فحينما يتوحد الطفل مع والده أثناء الصلاة أو اللعب فهذه علامة إيجابية من علامات الحياة الصحية. فالتوحد يعني أن يوجد(بضم الياء وكسر الجيم) الفرد إمكانيات كبيرة داخلة ليست فيه، فحينما يتوحد طفل صغير مع معلم ويقوم الطفل بعمل المعلم مع شقيقته الصغرى فهذه علامة إيجابية أى أن الطفل إستدخل إمكانيات تفوق سنه وهي إمكانات المعلم الكبير الراشد. هذا وقد يأخذ التوحد صورًا وأشكالاً أخرى كالتوحد مع المحبوب، المحسود، المعتدي، أولى ثانوي...إلخ، والتوحد في الأحلام مثل التوحد مع الزوجة التي تعبر عن أمه، وتصور حالتها(مريضة، سعيدة)، والتوحد مع الزوج الذي يعبر عن أبيها (سعيد ، حزين ، ندمان ، متدين...إلخ). وبالرجوع مرة أخرى إلى لفظ التوحد إعتقادا بأن طفل الأوتيزم متقوقع داخل نفسه تقوقع مسرف الشدة،فلماذا هذا التقوقع مسرف الشدة؟ ربما لأن مثل هذا الطفل يشعر بنوعين من الخطر وهما الخطر الداخلي والخطر الخارجي وهذا احتمال قد يكون صائبًا وقد يكون غير ذلك. وربما يكون سعي طفل الاوتيزم إلى العزلة ويرغب في أن يكون وحيدًا هل هذا واقع حقيقي للطفل؟ ربما يكون لدى وجهة نظر أو رؤيا أخرى وهي أن الفطرة الانسانية (

للأسـوياء وغير الأسـوياء) تقتضـي أن ينتمى الطفل إلى جماعة معينة وعادة ما يكون الانتماء في بداية حياة الطفل إلى الأسرة، ومع النمو ودخول الطفل إلى الحضـانة، وإلى المدرسـة، وإلى ... حتى الجامعة، والمهنة أوالوظيفة فأنه يجد في نفســـه النزعة إلى الإنتماء إلى مثل هذه الجماعات. حتى بالمعني العلمي الحقيقي إذا كان وجودي داخل جماعة ولي دور فيها فهذا لا يعنى بالضـــرورة أنني أنتمي إلى هذه الجماعة، فربما أعمل ضـــد هذه الجماعة وأنا ضـــمن أعضـائها حيث أعمل لصـالح جماعة أخرى، وقد يكون من هو خارج الجماعة ويعمل لصـالح هذه الجماعة من بعيد، وهذا ما نلمسـه في العديد من أطفال الأوتيزم الذين يتميزون بحسـاسـية مرهفة ومشـــاعر دفينة تتبدى في صـــور متعددة ليس من الضـــروري أن تتبدى في العلاقات الصريحة، فقد تكون ضمنية غير مباشرة وقد تظهر في اللعب أو الرسم أو الإيكولاليا (المصاداة المباشـرة الأنية) أو البللاليا (المصـاداة غير المباشـرة أو الآجلة) أو بعض الحركات كالباليه. وعلى الرغم من أن الكثير من أطفال الأوتيزم يقومون بدفع كل من يقترب منهم حتى ولوكان الآباء إلا أن هذا لا يعني بالضـــرورة أنه يفضـــل الإنعزال، فقد أكدت الخبرات الفعلية أنه عند تعرض بعض أطفال الأوتيزم إلى مثير مفزع بشكل مفاجئ فإنه يندفع بكل قوة في أحضان أمه أو والده أو شقيقة أو أي شخص أخر.

وإذا كانت الحقائق العلمية تقتضي الموضوعية والبعد كل البعد إن أمكن عن الذاتية حتى يتحقق الهدف المرجو. هل كل ما ذكرته يعني أن طفل الأوتيزم ليس مضـــطربا.؟ الإجابة لا فطفل الأوتيزم هو طفل مضطربأعود من جديد إلى توضيح معن التوحد بشيئ من التفصيل .

فالتوحد فى علم النفس والصـحة النفسـية لا يشـير إلى إضـطراب أو مرض كما هي الحال فى الأوتيزم. فالتوحد خاصـية أسـاسـية وطبيعية لنمو الأطفال خلال مرحلة الطفولة. فالتوحد علامة من علامات النمو الســـوى والطبيعى. والتوحد هو خروج مؤقت عن الذات، بينما الأوتيزم هو تقوقع قد يكون مستمر داخل الذات ، ومن بديهيات الصحة النفسية التمركز حول الآخر، وزيادة النسـيج الاجتماعى بدلاً من التمركز حول الذات بإعتباره علامة من علامات المرض النفسـى، حتى وإن كان ولابد من تمركز حول الذات فهذا لا يعنى أن يستمر هذا التمركز لفترات طويلة، بل لابد من أن يكون لدى الفرد مرونة فى التأرجح بين الذات وبين الآخرين.

ولكن لماذا يكون فى التوحد خروج مؤقت عن الذات؟ لعل ذلك يرجع إلى أن التوحد وليس الأوتيزم هو وسيلة يلجأ إليها الفرد ليزيد بها من قدر نفسه، بأن يمد هويته إلى شخص آخر، أو يقترض هويته من شخص آخر، أو يخلط ويدمج بها هويته بهوية شخص آخر. فحينما يتوحد الابن مع أمه مثلاً فإنه يمد هويته إلى هوية شخص آخر (توحد مع المحبوب)، وقد يكون توحد الإبنة مع أمها على سبيل المثال نتيجة لما قد يكمن داخل الابنة من مشاعر حسد تجاه أمها فهى تقترض هويتها من هوية شخص آخر وهى الأم (توحد مع المحسود) حيث ترغب الابنة فى أن تكون مكان أمها، وقد يتوحد على سبيل المثال رئيس الخدم مع مخدومه المستبد (تدوير القهر) حيث يصبح رئيس الخدم مع الخدم الآخرين تحت رئاسته بمثابة مخدوم آخر مستبد، وهذا النوع من التوحد يحدث فيه خلط ودمج هوية الشخص بهوية شخص آخر.

هذا بالإضافة إلى أن التوحد قد يكون أولى ،وهو حالة طبيعية تحدث فى الطفولة لكل طفل عندما لم يكن قد ميز بين هويته وهوية المحيطين به، أى لم يدرك الطفل الفرق بين "أنا" و"أنت" حيث لا يوجد معنى للفروق (تطور طبيعى لا شعورى) وقد يكون التوحد ثانوى حينما يدرك الطفل الوالدين منفصلين عنه، لهما هويتهما التى إكتشفها لهما، حيث يلجأ إلى التوحد كى لا يشعر بأنه منفصل عنهما، وتقل مشاعر العدوانية تجاههما (تطور طبيعى). وهناك توحد إسقاطى وهو عملية يتصور فيها الطفل نفسه داخل شخص آخر خارج عنه، حيث يعيش حالة من التوهم بأنه يسيطر بهذه الطريقة على الشخص الآخر، وهو بذلك يتوهم وجود قوة بداخله حيث يفتقدها فى نفسه ويجدها لدى الآخرين. أى أن إشباع الآخر لنفسه من خلال قوته هو أيضاً إشباع لنفسه (تطور طبيعى) نفي للنقص وتعويض بالكمال.

وهناك توحد إستدماجى وهو عملية يرى فيها الطفل الشخص الآخر داخله، وأن هذا الآخر هو جزء منه هو نفسه أى لابد من حدوث استدماج بينهما (تطور طبيعى) (الحنفى : د.ت) فالتوحد قد يكون مع المحبوب، وقد يكون مع المحسود، وقد يكون مع المعتدى (سامية القطان : ١٩٧٩)، أى أنه فى شتى صوره وأشكاله تجاوز لحدود الذات، وأنه مبنى على المشاعر، هذا التجاوز هو تجاوز مؤقت شأنه فى ذلك شأن العالم المبتكر أو الفنان المبدع حينما يعزف كل منهما عن الواقع المحيط عزوفاً مؤقتاً ليعيش خيالاته وأفكاره مع ملاحظة أن الخيالات هى خيالات مبنية على حقائق وواقع وليس فانتازيا (خيال مطلق) لا تعتمد على الحقائق ولا ترتبط بها، كما يحدث فى حالة الأوتيزم ،ذلك الاضطراب النمائى العصبى ،حيث يشعر غالبية أطفال

الأوتيزم بأن البيئة المحيطة بهم مصـــدر غير آمن لهم أو مصـــدراً للهجوم العنيف عليهم، مما يصـــعب على بعض أطفال الأوتيزم المصـــالحة بين مشـــاعرهم العدوانية الفطرية تجاه البيئة المحيطة بهم، حيث يلجأون إلى العزل، والانفصـــال الشـــامل عن العدوان، لدرجة أنهم ربما يبعدون عن أى إتصـال بالحياة الحقيقية، مما يؤدى بهم ذلك إلى حالة من الإنسـحاب ،والتقوقع داخل الذات ، ومن هنا يكون الأوتيزم قائم على التقوقع داخل الذات.

وحينما يحدث لطفل أوتيزم إنفصـــال عن المثيرات فى العالم الخارجى ،عادة ما تكون مثيرات مصاحبة للخوف والإلتفات إلى العالم الداخلى ،على الرغم من أن العالم الداخلى قد يكون مؤلماً فى التوحد Identification وليس Autism يكون التوحد ميكانيزماً دفاعياً لا شـعورياً يسـتطيع فيه الفرد الدفاع ضد التهديدات الداخلية والخارجية معاً

ومن الإسـتراتيجيات التى تسـتخدم لتحسـين بعض أطفال أوتيزم إسـتراتيجية اللعب المشـترك Shared play والتى إقتبســتها من هوايتكر Whitaker Philip، ٢٠٠٤، والتى كان من نتيجتها أن حدث نوع من التوحد Identification والذى تم إسـتخدامه فى تحسـين حالة طفلة أوتيزم فى أحد الجوانب ، إذن من الممكن إعتبار التوحد Identification ضمن الإستراتيجيات التى تســاعد فى تحســين الأوتيزم Autism ،وأكدت نتائج باررو Barrows Paul٢٠٠٢، والتى عالجت طفل أوتيزم خلال دراستها الكلينيكية من خلال التدخل النشط للمعالج أو الوالدين فى إدخال فكرة العدوان بشـــكل معتدل ومرح لكى يســـمح بترابطها وتكاملها التدريجى ، حيث إستطاع هذا الطفل التخاطب بشكل جيد، وإشترك فى لعب رمزى، وإختفت الإيماءات والملامح النمطية، إلا أن لغته لازالت فى بعض الأحيان صـــعبة الفهم. والمثير فى نتائج هذه الدراســـة الكلينيكية كما أكدت بارروز أن هذا الطفل خرج من حالة الأوتيزم إلى حالة من التوحد الإسقاطى مع شخصيات قوية مسيطرة. ولعل فى نتائج هذه الدراسة تأكيد للفارق بين السوية (التوحد) واللاسوية (الأوتيزم) ، فتوحد طفل الأوتيزم هو عودة الطفل إلى حالته العادية السوية بدرجة أو بأخرى ،سواء كان توحد مع المحبوب أو المحسود أو المعتدى ، والتى تعد بمختلف صورها أنواع من السيكودراما، حتى وإن لم يكن توحد وإن كان تقليد أو تقمص على إعتبار أن التوحد أعمق من التقليد ويســـتمر فترة ولا يأتى من خلال موقف واحد ، وإنما يأتى عبر فترة زمنية ومن خلال عدة مواقف .فالتقليد أو التقمص يكون على مســـتوى الســـطح بينما التوحد يتضمن عدة طبقات تحت السطح.

وفى عام ٢٠٠٥وصف السيد أبو شعيشع فى كتابه الأسس البيوكيميائية للأمراض النفسية والعصبية طفل الأوتيزم بأنه " طفل جميل مسجون فى قوقعة زجاجية ". ولقد تعلق الآباء والأمهات – لعديد من السنين – بهذا الرأى آملين أن يتحطم هذا الحاجز بينهم وبين طفلهم يوما ما .وقد أدعى الكثيرون وجود علاجات ولكن بغير دليل قدموه يؤيدون به ما يدعونه ، وبقيت القوقعة سليمة على حالها .

وعلى الرغم من أننى أتفق مع رأى أبو شعيشع إلا بأنن أقر وأعترف بأنى لا أستطيع إستجلاء ،وبيان ما يطويه هذا اللغز المحير، والملقب بالأوتيزم إلا أن محاولاتنا المتنوعة ربما وليس يقينا تكون خطوة فى طريق قد يصل بنا إلى نقاط مضيئة، تضيئ لنا إنتزاع بعض الحقائق حول هذا اللغز ولعل الإصابة بالأوتيزم قد يكمن وراءها إكتشافات جديدة، لم تظهر للوجود حتى الآن، قد تفتح الأبواب المغلقة ،التى يخرج منها الضوء الذى ينير الطريق ،لدحض الاسطورة القائلة "بأن المصابين بالاضطرابات النمائية لا يتغيرون"، ضوء نسير على هداه ،وليس ضوءًا شاردًا ، فالهداية المطلوبة شطران ،الشطر الأول هداية تدل على الطريق (مقدمات التعايش) ،والشطر الثانى المكمل للشطر الأول هداية معونة ،تعين على تقديم المعونة المتمثلة فى الرعاية، والتدخلات النفسية والمعالجات وما ذلك على الله بعزيز، فلا يوجد جهد دون خطأ، ولا نجاح دون فشل، ولا إنجاز دون تعب ،وإن تعبنا فى البر ،فإن التعب يزول والبر يبقى.وطفل الأوتيزم إن كان غريب عنى فما أجمل أن يصبح هذا الطفل الغريب فى يوم ما صديق لى .

أيضا لدى قناعة تجعلنى أرفض إصدار الأحكام ،وأرفض المقارنات بينى وبين غيرى، وأرفض نقد الغير ،ولا أسمح لأحد كما قال (غاندى) بالدخول فى عقلى بأقدام متسخة .

فأطفال الأوتيزم جديرون بالاهتمام ،والرعاية من منطلقين الأول أخلاقى والثانى عملى ، فالمنطلق الأخلاقى ،حيث هناك من ينظر إلى إليهم نظرة أرسطالية باعتبارهم إما قمامة أو زهور، ولا شك أن هذه النظرة ،حتى وإن كانت تقدم لنا حفنة من النهايات السعيدة بأبحاثها، إلا أنها تميل بنا إلى الغرق فى الثقوب السوداء. ذلك أن لسان حال طفل الأوتيزم يقول لى "إتعلم عنى قبل أن تتكلم عنى." والتى تتبدى فى النظرة الإنسانية ،التى تحتم النظر إليه باعتباره إنسان ،أى قيمة لا مجرد شئ من أشياء الطبيعة ،كما تدعى النظرة التشيئية (الأرسطالية) ،التى تقيم فواصل وحواجز بين مختلف جوانب الإنسان من ناحية وبين الإنسان والواقع الذى يعيش فيه من ناحية أخرى . أما المنطلق العملى ،فيكمن فى تلك الفوائد الأكاديمية ،والوجدانية،

والاجتماعية، والمهنية التى يمكن تحقيقها له، حتى وإن كانت الأدلة قليلة ،أو غير قاطعة ،ذلك أن مبدأ إنسانية طفل الأوتيزم وخصوصيته وتفرده،يحتم ضرورة أن تدعم الأنظمة العلمية ،والثقافية فى كل بلاد العالم أطفال الأوتيزم، ذلك أنه من الممكن أن تؤدى أى محاولات للاهتمام بهم إلى إحداث تغيرات فى سلوكياتهم أو بعض سلوكياتهم حتى ولو كانت بسيطة ،ولم تصل إلى حد الدلالة الإحصائية. فقد أثبتت التجارب أن كثير من أطفال الأوتيزم (النقى) يمكن تحسين سلوكياتهم أو بعضها وتعديلها ، ،كما يمكنهم أن يتعلموا، ويتطوروا ،خاصة بعد أن أصبح الحاضرأفضل من الماضى بعد إكتشاف العديد من الأساليب، والتقنيات، التى تساعد كثيرا فى التشخيص، والمعالجة إلى الدرجة التى أصبح معها التفاؤل قد وصل إلى درجة كبيرة. ولا شك أن هذه المحاولات ذات قيمة كبيرة ،وعملية خاصة ،فى مجال تعليم ذوى الاحتياجات الخاصة حيث يؤثر التحسن البسيط على أسلوب حياة الطفل، وأسرته. فهى ضرورية لأن يتعلم الطفل كيفية الخروج من حالة الإسراف فى التقوقع داخل الذات ،إلى الانفتاح على العالم الخارجى، والتوحد Identification مع آخرين فى العالم الخارجى ،أى الانتقال من التمركز حول الذات إلى التمركز حول الآخر، وزيادة النسيج الاجتماعى ، بتعلم كيفية المبادرة ،والاستجابة للتفاعلات بأسلوب ملائم، وليس مجرد تحسين التوازن بين المبادرات والاستجابات الناجحة وغير الناجحة. فقد أثبتت نتائج بعض الدراسات أن بعض أطفال الأوتيزم لديهم القدرة ،على ممارسة ،وتعميم بعض المهارات التى يتعرضوا لها ،من خلال البرامج ،والاستراتيجيات والتدخلات النفسية والإجتماعية المتنوعة، وبذلك يمكن دحض الأسطورة القائلة بأن المصابين بالاضطرابات النمائية لا يتغيرون.

وبذلك تنفتح آفاق إشراقة الأمل للتخلص من الإحباط وإيلام النفس التى يعيشها آباء ومعلمو أطفال الأوتيزم. فمن المواقف الأكثر إحباطاً ،وإيلاماً للنفس، فى دلالتها ،وعمقها أن يعيش الآباء، والمعلمون مع أطفال يعانون من الأوتيزم على مدار فترة زمنية ،لا يعرف مداها، ربما تطول ،وربما تقصر، خاصة وأن طفل الأوتيزم غالبا ما يتصف بالغموض، ولا يعرف بدايته الحقيقية، وأسبابه، وتثار حوله أسئلة عديدة لعل أهمها هو التساؤل ،هل هناك نقطة يمكن أن ينتهى عندها الأوتيزم، وما هى التدخلات والمعالجات؟ ومما يزيد من تعقيد تلك المشكلة لدى البعض هو التباين ،الذى يظهر لدى بعض أطفال الأوتيزم ،بين الأداء الفعلى لهم ،والأداء المتوقع منهم خاصة وأن بعض هؤلاء يتمتعون بذكاء خاص فوق المتوسط أو مرتفع (الذكاءات

المتعددة) وليس ما يطلق عليه بالذكاء العام ويطلق على بعضهم مسمى نوابغ فئة الأوتيزم، حيث يستطيع بعضهم القراءة بنصف الوقت الذى نستغرقه نحن ،ومنهم من يقرأ الصفحة اليمنى بالعين اليمنى ،والصفحة اليسرى بالعين اليسرى، ومنهم من يستطيع تذكر ما يقرب من ٩٨٪ مما يقرأه. وبعضهم ذاكرته ليست عميقة فحسب ، بل رحبة جداً أيضاً، كما أن منهم من يمكنه الحديث عن موضوعات بتفصيلات لا يستطيع الطفل أو الشخص العادى الحديث عنها، وإن كان بعضهم يكتفى بتذكر الأشياء دون فهمها....إلخ ، ومنهم من يؤدى الاضطراب به إلى إعاقة أدائه ،فى مختلف مجالات النمو الطبيعى، التفاعل ،والتواصل الاجتماعى، وكذلك يعوق قدرته على القيام بالأنشطة الحياتية المختلفة بشكل فعال ،وإعاقة أدائه الإنفعالى. وما يترتب على ذلك من نمطية العديد من سلوكياته ، والبعد به عن المسار الطبيعى للنمو، والإسراف ،والاستغراق فى التقوقع المستمر داخل الذات ،وبذلك البعد عن التمتع بالصحة النفسية. حيث ينفصل معظم أطفال الأوتيزم إن لم يكن كلهم عن مثيرات العالم الخارجى ،ربما لأنها قد تكون مثيرات مصاحبة للخوف لديه ،والتمركز داخل العالم الداخلى ،على الرغم من أن العالم الداخلى قد يكون مؤلماً له، حيث يتصف الكثير من أطفال الأوتيزم بقصور ونقص وضعف فى وظيفة تدوين المفاهيم ،وأن هناك إنفصال بين تدوين المفاهيم ،والمعلومات، واستخدامها ،أى أن هناك ضعف فى الربط بين الكلمة والمدلول مما يزيد من قوة الذاكرة لدى الكثير منهم.

ومن الضرورى عند الدخول فى عالم الأوتيزم لكل المتخصصين سواء فى طب الأطفال والطب النفسى والصحة النفسية (هنا تعمدت أن يكون ترتيب المتخصصين على هذا النحو كدرجات السلم فطبيب الأطفال هو أول درجات السلم يليه الطبيب النفسى ثم المتخصص فى الصحة النفسية) أن يتمتع بالحساسية المشتركة(الإحساس السيكولوجى) ،فهى المدخل والبداية كى يتخطى عتبة الحساسية والدخول فى عالمه الخاص عالم العاطفة الحميمة، عالم الحب الحقيقى لأن طفل الأوتيزم ،بحاجة ماسة إلى الحب، والحنان ،لا الشفقة ،ولا التجاهل، فهو بحاجة إلى الإحسان. ومن الجدير بالذكر أن نجد أيضا منهم عباقرة، ولهم من الشهرة ما لم يحظى به الغير، يعيشون الأوتيزم المتخفى لا الظاهر.

***هل الأوتيزم مرض ؟**

كثير من الباحثين يتحدثون عن الأوتيزم على أنه مرض ، فإذا كان الأوتيزم مرض إذن يمكن علاجه . وحتى يومنا هذا لم أرى دراسة فى حدود علمى أظهرت نتائجها أنه تم شفاء طفل

أوتيزم ، بل تؤكد النتائج تحســـن فى حالة الطفل من خلال تنمية بعض المهارات لدى الطفل، هذا بالإضـــافة إلى عدم الإتفاق على أســـباب الأوتيزم فهناك من يرى أن الأســـباب تكمن فى مشـــاكل فى الدماغ ، فى حين يرى البعض أن الأســـباب وراثية ، وهناك من يرى أن الأســـباب مكتســـبة .....إلخ . وبناء على ذلك هناك شـــبه إتفاق على أن الأوتيزم هو إضـــطراب نمائى عصبى . أيضـا هناك غموض حول أسباب زيادة نسبة إنتشـار الأوتيزم بين الذكور عن الإناث ،فالنسـبة هى ٤ ذكور إلى ١ أنثى . أيضـا مازال الغموض حول إقصـار (الريت) على الإناث دون الذكور .

وهنا أتســـاءل : ما الأســـباب التى تكمن وراء تلك التصـــنيفات الأرســـطالية؟ الأوتيزم ، والأســبرجر ،والريت،والأوتيزم المتصــف بالأداء الوظيفى العالى أو المرتفع ، رغم أن المجانســة تقتضـــى أن تنضـم كل هذه التقسـيمات ضـمن جنس واحد هو الأوتيزم ،وإن كان بينهم تباين . لماذا رغم كل هذا التقدم فى البحث العلمى والتطور التكنولوجى فى تســهيل وتيســير الحصــول على المعلومات وتبادلها وتبادل الخبرات الفعلية ، ورغم الأبحاث الهائلة فى الكم والكيف لم تصل النتائج إلى حد حق اليقين ولا زالت فى مرحلتى علم اليقين وعين اليقين ؟

وعلى الرغم مما يشـهده عالم الأوتيزم من ألاف الدراسـات والأبحاث وترتب على ذلك ظهر حتى وقتنا هذا ما يقرب من (١٠٠٠) مما يســمونه علاجات نفســية وهذا ليس عيبا ولكن هل هذا التعدد يعنى الثراء فى المعرفة والعلم؟ إذا كان الأمر كذلك لماذا لم نصــل حتى الآن إلى تحديد أســباب محددة بعينها تكمن وراء الإصــابة بالأوتيزم ،رغم كل هذا العلم ، وهذه المعرفة ،وكثرة حالات الإصــابة ،التى وصــلت فى العديد من المجتمعات إلى حد الوباء ،ورغم كل هذا التقدم التقنى الذى يكاد يفتك بعقول الكبار قبل الأطفال . كذلك أصبح البحث والدراسة الآن فى مجال الأوتيزم وغيره من المجالات الأخرى ، يتصـــف لدى الكثرة ،وليس القلة بالذاتية(فى إقرار ما يسـمونه بحقائق ،أو نتائج أو بيانات،أو إحصـائيات ،أو نتائج برامج) فقد شـاهدت بنفسـى وعن قرب من هم من بعض حملة أعلى الدرجات العلمية (الماجســـتيروالدكتوراة) لهم من الأبحاث والإنتاج العلمى فى مجال الأوتيزم ،ما لم يحظى به من دخل إلى عالم طفل الأوتيزم الحقيقى ،والواقعى ،وعاش ،وتعايش، وتعامل مع الكثير منهم ، فقد إســتطاع البعض أن يحســن طفل بل مجموعة أطفال أوتيزم كما يدعى فى عدد من الجلسـات لم يتجاوز الثلاثين أو حتى الثمانين جلســـة ،كما إســـتطاع البعض تنمية العديد من المهارات بداية من مهارات الإنتباه ،والمهارات

الكلامية ،والإجتماعية ،والإنفعالية ....إلخ.وعلى الجانب الأخر يوجد من الباحثين من يعمل بكل دقة وموضوعية .

وعلى الرغم من التقدم العلمى والتقنى فى المرحلة الراهنة والزيادة الهائلة فى المدارس والجامعات وإنتشـــار أجهزة المحمول وزيادة شـــبكات الإنترنت ،وزيادات وتنوعات فى البرامج والتدخلات والإســتراتيجيات والفنيات، واكب كل هذا أمر جد خطير شــائع حاليا وهو قيام البعض بإنشــاء مراكز خاصــة وإيهام بعض الناس ممن يعانون من بعض المشكلات الحياتية وأخص منهم تلك الأســر التى حباها الله بطفل أوتيزم وغير ذلك من الأمراض والنفســية بأنهم يملكون من القدرات التى تمكنهم من شفاء مثل هذه الحالات فهذا نوع من التحايل ومن أقوى المؤشرات على فقدان أخلاقيات وآداب المهنة.

. ليس الكفيف الذي أمســى بلا بصــر .. إنّي أرى من ذوي الأبصــار عميانا"إيليا أبو ماضــى".

وهنا أود أن أشـــير إلى عدم تحرى الدقة لدى بعض الباحثين فهم قلة قليلة ويتبدى ذلك من البرامج ســواء كانت إرشــادية أو علاجية عند الإدعاء بأنه تم تطبيق هذه البرامج على العينات المعنية، وبالرجوع إلى جداول تطبيق البرامج تكون الصــدمة ، على ســبيل المثال حينما يدعى باحث ما بأنه قام بتطبيق البرنامج على عينة مثلا مكونة من خمس أفراد ، ويتضـــمن تطبيق البرنامج جلســات جماعية وجلســات فردية ويقر بأن عدد جلســات البرنامج مثلا ثلاثون جلســة مبينة فى جداول التطبيق بثلاثون عنوان ، فلكل جلســة عنوان ، فعلى ســبيل المثال حســب قول الباحث أن عدد الجلسات الجماعية خمسة عشر جلسة وعدد الجلسات الفردية خمسة عشر جلســة بإجمالى عدد جلســات ثلاثون جلســة ،وهنا يكون الأمر غير دقيق لأن عدد الجلســات الجماعية لاخلاف عليه ، بينما فى الجلسات الفردية فى حال العينة التى تتضـمن خمسـة أفراد فهذا يعنى أن عدد الجلسات الفردية فى حقيقة الأمر هو خمسة وسبعون جلسة بالإضافة إلى خمسة عشر جلسة جماعية هنا يكون إجمالى عدد جلسات البرنامج تسعون جلسة . من جانب أخر يرى بعض الباحثين أنهم حققوا نتائج جيدة تتضـــمن تنمية مهارات عقلية ووجدانية واجتماعية لدى أطفال أوتيزم بعد عدد من الجلســات لايتجاوز الثلاثون جلســة وهذا أمر غريب وغير دقيق معتمدين على الدراسات الأجنبية فى إغفال تام للفروق الثقافية والبيئية وثقافة الأسر ومركز تقديم الخدمة ونظرة المجتمع ....إلخ .

نقطة أخرى جد تحتاج إلى مراجعة دقيقة وهى أن بعض الباحثين يحاولون إجراء إجراء تدخلات أو معالجات بغرض معالجة إضـــطرابات ربما تكون مصـــاحبة للأوتيزم دون أى تدخلات أو معالجات للأوتيزم . هنا أتســـاءل أين المنطقية ؟ فالتدخلات والمعالجات تبدأ بالأصـــول قبل الفروع .

فالعلم هو أولاً وقبل كل شيئ بناء جديد للوقائع، بناءً للوقائع وصفية كانت أم رقمية، بناء عقلى يكتمل ويتم فى ذهن الباحث ومن ثم فهو بناء جديد يتم عبر النســـبية أي رد كثرة الظواهر المتماثلة Analoguesإلى وحدة الصـــرح النظري التفســـيرى (النمط الكيفى أى نمط العلاقة المثالية أو النموذج الهيكلى)، أو القانون التفسيرى أو أقل عدد من المبادئ التفسيرية إستنادا إلى مبدأ الإقتصاد فى العلم، بحيث نبنى الظاهرة بناءً جديدًا Reconstructionsفى صورة نموذج هيكلى أو نمط كيفى تكون كل الحالات الأخرى المماثلة مجرد تشـــكيلة تباينات له، تشـــكيله انتظامات متباينة وإن تكن متماثلة، يتجسد عليها الإنموذج بالرجوع إلى نوعية السياقات البيئية، مما يعرف فى نظرية الجشـــطلت بالتبدل الوضـــعى transposition . فالظواهر المتماثلة هى هى من حيث المبدأ وإن تباينت من حيث الإنتظامات الفريدة التى تتجســـد عليها بالرجوع إلى النوعية الفريدة للســـياق البيئى (الشـــروط البيئية) فى كل حالة من الحالات ويعرف ذلك بمبدأ المجانسة ومبدأ الشرطية.

ورجل العلم بذلك يرد كثرة الظواهر (المتماثلة) إلى وحدة الإنموذج الهيكلى مما يقيم الصـــرح النظرى التفسيرى أو القانون التفسيرى الفهمى والذى يختلف عن قانون التواتر (التكرار) في غير فهم فالعلم في صـميمه وبمعنى الكلمة ليس غير عملية تنظير Theorization وبذلك تمضـى الحياة فى تطورها من الشـيئ إلى نقيضـه،فالشـيئ يخلق نقيضـه وينشـأ الصـراع بين هذين النقيضـــين ويحتدم قبل أن يتمخض النقيضـــين عن إئتلاف جديد لن يلبث حتى يتمخض عن نقيضه ومن ثم ينشأ بينهما الصراع وهكذا.

وإذا كان من المؤكد(اليقين) بشكل قاطع أن لب العملية العلمية وصميمها إنما ينحصر فى إعادة بناء الوقائع فى ذهن العالم (بكسـر اللام) فى صـورة النظرية التفسـيرية أو القانون الفهمى كما أشـــار (مخيمر) ١٩٧٩ فى صـــورة أنموذج هيكلى ونمط كيفى يقدم العلاقة المثالية هذه التى تتجسد فى الواقع العيانى فى تشكيلة من التباينات لا نهاية لتباينها بتباين السياقات البيئية.

مشـكلة أخرى يغفل عنها بعض الدارسـين فى مجال الأوتيزم وغيره من المجالات الأخرى التى تتعلق بالطفولة عموما عدم الأخذ فى الإعتبار التباين بين الأطفال فى الثقافات المختلفة . هنا أطرح تسـاؤل :هل الطفل المسـتقل فى ثقافتنا العربية من وجهة نظرنا يسـتطيع أن يقوم ببعض الأعمال دون مساندة أو مساعدة من الأخرين ؟ وإن إستطاع فلماذا يشك فيما يقوم به من أعمال ودائم التسـاؤل عما قام به ما إذا كان صـوابا أم خطأ ؟ وهل بإمكانه أن يقول لا فيما لا يرغبه ؟ هل الطفل فى ثقافتنا فى المرحلة العمرية من سن ثلاث سنوات وحتى الخامسة من عمره يسـتطيع مسـاعدة ذاته ؟ ووفقا للمعايير الدولية وطبقا لنظريات النمو أن يقوم بإعداد ساندوتش أو تغيير ملابسه أو ترتيب لعبه (بضم اللام) ووضعها فى أماكنها ؟ أو بمعنى أخر هل يسـتطيع القيام ببعض الأعمال داخل وخارج المنزل كأن يغسـل الكوب بعد شـربه ؟ وإن إسـتطاع القيام فإنه يقوم بها فى سـن متأخر عن ذلك وغالبا ما يسـتغرق فترة طويلة . وفى السياق الإجتماعى هل بإمكانه أن يقوم ببعض المشاركات الإجتماعية كما يفعل أقرانه فى بلدان أخرى .ولا شـك أن ما تفعله معظم الأمهات فى ثقافاتنا العربية من خلال أسـاليب معاملة تقوم فى جوهرها على الحماية الزائدة تحت زعم ووهم الحرص والخوف على أطفالهن بل وأكثر من ذلك تستقدم بعض الأسر فى بعض المجتمعات العربية مربيات أجنبيات مما ينتج عنه ضعف وقصـور فى النمو العقلى والإجتماعى والإنفعالى والبدنى . حتى وإن تخطى الطفل هذه السـن ووصل إلى سن المدرسة بداية من السادسة لايستطيع أن يتمتع بدرجة من الإستقلالية والإرادة مقارنة بأقرانه فى العديد من البلدان حيث يعتمد معظم أطفالنا على الأمهات فى معظم أمورهم الحياتية من تناول الطعام والإسـتذكار وعمل الواجبات ، وأن إسـتطاع القيام ببعض الأعمال غالبا ما يتشـكك فيما يقوم به من أعمال متسـائلا عما إذا كان صـواب أم خطأ ، وهنا يحدث قمع وكبت وتأخر وكبح فى مختلف جوانب النمو ولا يستطيع الطفل فى مثل هذه الحالة من أن يكتشـف ذاته ولا الأخرين . وبالنظر إلى وجهة نظر "لورانس كولبرج "فى النمو والتطور والرقى الأخلاقى غالبا ما يكون رد فعل الطفل تجاه ذلك إما الطاعة تجنبا للعقاب وإما الطاعة للحصـول على إثابة أو مقابل . وفى حال عدم العقاب وعدم الحصـول على إثابة فإن الطفل يفعل ما يشـاء وخاصـة فى الأعمال والأفعال غير المقبولة أو المسـتهجنة . كذلك فى حالة الرقابة المتلاحقة للطفل أثناء نموه وسـلوكه تحت زعم ووهم الحماية الزائدة والخوف على الطفل ...إلخ ، مع عدم إتاحة الفرصـة أمام الطفل للإنفتاح على العالم المحيط به لكى ينمى حب

الإستطلاع وإكتشاف ذاته والعالم من حوله فلا تتولد نتاج ذلك ثقة بالنفس ولا بالأخر ووتقل أو تضعف فرصة إستمتاعه بالإستقلالية ، بل تكون الهيمنة والسيطرة للتبعية وما يصاحب ذلك من ضعف وقصور الإرادة وم ثم مشاعر الخجل وربما الخزى ومن ثم التوارى والإنسحاب السيكولوجى الذاتى من الوسط الإجتماعى رغم وجوده وسط الأخرين – وهنا أود أن أذكر أن أحد مواد الدستور اليابانى تؤكد على " ضع الطفل أمامك وليس خلفك " – ويزداد الأمر صعوبة حينما أتساءل هل تتساوى القدرة على الإستقلالية لدى أبنائنا بنظيراتها لدى الأطفال فى الدول المتقدمة التى إعتمد مصمموا الدليل التشخيصى على ثقافاتهم دون الأخذ فى الإعتبار ثقافاتنا العربية ؟فما يستطيع معظم الأطفال عمله فى سن ست سنوات على سبيل المثال فى العديد من البلدان المتقدمة فى مختلف قارات العالم من قبيل مساعدة الذات ومساعدة الأخر سواء داخل أو خارج المنزل لايستطيع عمله معظم أطفالنا فى منطقتنا العربية . وفى حال إلحاح الأم على الطفل للإستذكار وعمل الواجب . فى حال موافقته فإنه يذهب بقوله أعملك الواجب (بشروط) أى أصبح الإستذكار وعمل الواجبات مشروط بمقابل . لاشك أن أساليب المعاملة الوالدية لعبت دورا محوريا فى الوصول إلى هذا الحال ، ناهيك عن إحلال بدائل للأم لدى البعض فكيف نوفر قلب أم إذا وفرنا بديلا للأم؟ وكيف نشترى خصائص أبوة وخصائص أمومة مع سهولة ؟ الكثير منا يكبت ويقمع نمو الطفل العقلى والوجدانى والإجتماعى ، وعادة الأم هى التى تذاكر وهى التى تقوم بعمل الواجبات ....إلخ وبالتالى تتدهور قدرات الطفل فى تلك الجوانب وما يقوم به الطفل العادى فى مثل هذه الحالات ما هو إلا نوع من الببغائية . وبذلك لايستطيع الطفل أيضا أن يعى ويكتشف ذاته وربما لا يعى ولا يدرك أى المجالات يحبها ويفضلها عن غيرها وأيضا قد لايدرك مواطن القوة عنده فيستثمرها ولا مواطن الضعف فنعالجها . وإذا كان الدليل التشخيصى للإضطرابات النفسية ، قد ساهم كثيرا فى تحديد المعايير التشخيصية ،إلا أن خصوصية الحالات ،وتفردها، يجعل من الإتفاق على تشخيص الحالة أمرا صعبا ، فحينما يذهب مريض ما إلى طبيبين فى نفس اليوم ،ربما لانجد إتفاقا على وحدة التشخيص، رغم إعتمادهما على معايير الدليل التشخيصى ،هذا بالإضافة إلى أن التشخيص السيكومترى الذى يعتمد عليه الدليل التشخيصى، رغم التشخيص بأنهم مصابين بالأوتيزم على سبيل المثال، يتضح أن أحدهم ليس مصاب بالأوتيزم ، ولعل ذلك يتضح فى الإصدارات المختلفة الثالث عام ١٩٨٧،والرابع عام ١٩٩٤ ،والخامس عام ٢٠١٣،أيضا هناك من المرضى

،أو ذويهم من يلجأ إلى الدليل التشخيصى، ويقوم بنفسه بالتشخيص ،فالدليل يقدم تشخيص فورى، فهو وإن كان مزية ،إلا أنه قد يأتى بحفنة من النهايات غير السعيدة ،وهذا أمر يجانبه الصواب ، وهناك من يلجأ إلى الإنترنت ، وهذا هو الشائع بين العديد من الباحثين الآن حيث يقوم الباحث أو الأب أو الأم وكل من لديه طفل أوتيزم بتسجيل الأعراض ،ويظهر له التشخيص، وهذا أيضا أمرا غير محمود، حيث بات من السهل التشخيص ،ولكنه فى واقع الأمر تشخيص ميكانيكى غير آمن ،فالتشخيص الحق هو تشخيص يعتمد على الدينامية ،والوظيفية، والموائمة، والشرطية ، ذلك هو التشخيص الحق ،الذى يساعد على خروج المضطرب ،أو المريض من القوقعة، إلى العالم الواسع المحيط به.

هذا ما يجعلنى أتوخى الحذر والحيطة ،عند اللجوء إلى الدليل التشخيصى للإضطرابات والأمراض فى أى من إصداراته، للعديد من الأسباب، سيتوالى ذكرها بين الحين والحين كل فى المكان المناسب .

ورغم كل المحاولات التى تبذل فى كل أرجاء العالم فهى محاولات ما تزال بعد فى حالة من البدائية. وما أكثر الأمال التى قد لا تصيب ولكن ما أكثر المفاجآت السعيدة أيضاً. هذا بالإضافة إلى إستسلام المتخصص لحاسته فيقيم تشخيصه على مجرد إنطباع، أو على ما توحى به واقعة جزئية كاشفة، فالباحث الجيد هو الذى يتلاءم مع ما فى المواقف والمشاكل من تنوع وأصالة وليس مجرد ميكانيكية التأويل.

من الضرورى عند التعامل مع طفل أوتيزم أن نضع نصب أعيننا ضرورة إنفتاح أفاق واسعة آخذين فى الإعتبار إستحالة وجود تجانس بين طفلين أوتيزم ،كما يجب أن نكون على إستعداد للتفكير والتأمل للتباين بين أطفال الأوتيزم، وإذا كان ألف طفل عادى أو طبيعى ليس بكثير، فإن طفل أوتيزم واحد هو بكثير ، وإذا كانت الدلالة الرقمية لهذا الطفل هي أقل القليل أو هى أبعد حدود القلة، إلا أن هذه القلة لها دلالة تصل إلى أقصى غايات الدلالة ، فهى قلة تتيح لنا أن نتفهم الوحدة فى كثرتها، وأن نتتبع الكثرة فى إطارها الواحد فكل طفل أوتيزم فى كل جلسة من جلسات المعالجةإنما هو بمثابة كتاب تزداد صفحاته فى كل جلسة من الجلسات السابقة ، ولم يستطيع أحد فى كل مرة أن يبلغ من هذا الكتاب ما يريد ،فطفل الأوتيزم ما زال لغزاً محيراً يحتاج منا إلى التعمق فى حالته فى محاولة من محاولات الدخول إلى عالمه ربما ندرك شيئاً

جديداً عن إدراكه فى المحاولات السـابقة ، وإذا كان هناك تبايناً بين طفل وأخر فهناك أيضـاً تباين للطفل نفسـه من وقت لآخر حيث أن فى كل محاولة تتفتح آفاق جديدة، ومشـاكل كثيرة تستثير عقل ووجدان الباحث والمعالج الحق فتحفزه على التفكير وتبعثه على التأمل فى محاولة لتفهم تلك الوحدة (طفل الاوتيزم) في كثرتها.

أيضـا من القضـايا الأخرى فى عالم الأوتيزم تكرار الحديث والوصـف لطفل الأوتيزم بأنه يعيش حالة من الوحدة ، وهنا لى وجهة نظر أخرى من خلال معايشـتى لأطفال أوتيزم لأكثر من عقدين من الزمن فالغالبية العظمى من أطفال الأوتيزم يعيشـون العزلة وليس الوحدة ويمكن أن أطلق عليها العزلة المزدحمة إجتماعيا ،فالوحدة فى كل أحوالها مؤلمة أما العزلة فمنها السـلبى ومنها الإيجابى ،وتفضـيل العزلة ربما يرجع إلى مشـاعر، وأحاسـيس، من الحزن تخفى وراءها عدوانية متفجرة ضد من يحيطون بهم.

أعود من جديد كى أطرح السـؤال مرة ثانيةهل النتائج التى تصـل إليها الكثير من الدراسـات فى مجال الأوتيزم يمكن الوثوق بها وتعميمها مع إختلاف الثقافات ، وكذلك فى الثقافة الواحدة ؟ من بدهيات الدخول فى مجال البحث العلمى إدراك أن لكل ثقافة لغاتها ،وخصـائصـها ، ومفرداتها ، ودلالتها . فالثقافات تتباين والدلالات تتباين ، وفى الثقافة الواحدة تتباين أيضـا الدلالات من جماعة لأخرى ، وبين أفراد الجماعة الواحدة ، ولدى الفرد نفسـه من وقت لأخر .فالثقافة تلعب دورا حيويا فى تشكيل شخصية الفرد ، وإذا كانت اللغة مكون من مكونات الثقافة فإن ألية عمل اللغة تتشـكل من خلال تنظيم عقلى معين ، ويتبدى ذلك واضـحا حينما يتقن شخص ما لغتين كالعربية والإنجليزية فمن الطبيعى أن ألية عمل الدماغ تتباين فى اللغتين .

من ابرز القضـايا الشـائعة فى العديد من الدراسـات الخاصـة بالأوتيزم الأعتماد على المقاييس السـيكومترية التى تتضـمن العديد من أعراض الأوتيزم ، حيث تؤكد درجات مثل هذه المقاييس تشـخيص الحالة بأنه أوتيزم . وكذلك الزعم والتوهم بقضـية التجانس بين أطفال الأوتيزم سـواء بين الذكور والذكور ، والإناث والإناث ، والأغرب بين الذكور والإناث ، وفى كل الأحوال من المسـتحيل تحقيق التجانس لإختلاف الخبرات السـابقة حتى بين التوائم هذا من جانب ، ومن جانب أخر من البدهى أن البنية الفسـيولوجية للذكور تختلف تماما عنها لدى الإناث ولعل ما يؤكد ذلك ما زال لغز نسبة الأوتيزم بين الذكور والإناث ١:٤.

وفى ســـياق العقل، والإختيار ،والتكليف من عدمه كان ولابد من أخذ كل هذا عند الدخول إلى عالم الأوتيزم . وبنظرة سريعة وموجزة ،أرى أن الأوتيزم يعد من الظواهر الإنسانية القديمة، التى ظهرت فى ثوب جديد فى عصرنا الحالى، بإعتبارها صورة خاصة من ظواهر الحياة الإنسانية ،التى لها خصــوصــيتها، لها قوانينها الخاصــة، ومناهجها الخاصــة فى البحث،وفى الدراســة ،تختلف عن تلك التى تصـــدق على الظواهر الإنســـانية الأخرى.ومن هنا كان لزاماً على المشــتغلين والمهتمين بهذه الظاهرة ،أن يجدوا ضــالتهم المنشــودة فى ترســيخ قواعد علم يخدم البشـرية ،حتى لا يتحول من علم إلى لا علم ، أو بمعنى أخر يكون ضـد العلم. فمن اللامنطق أن نتذرع بالمنطق فيما لاسبيل إليه بالمنطق.

ومن الضـــرورى ونحن فى بدايات الألفية الثالثة أن نعيش إطلالة مرحلة متعلقة فى علم النفس عامة، وعلم الصــحة النفســية ،والتربية الخاصــة خاصــة، ترتســم على محياها بســمات الأمل ،وإشــراقات الفأل ،لتحقيق مســتقبل أفضــل بإذن الله، لدفع عجلة تقدم الأمم ،والمجتمعات. ولم يتحقق ذلك بغير التحول كما أشــار (كيرت ليفين) عن الأســلوب الأرســطاطالى إلى الأســلوب الجاليلى فى تناول الظواهر النفسية ،وما يتمخض عنها. حيث فقدت الثنائيات منطقيتها ومغزاها ،والثنـائيـات هنـا تختلف عن نظيراتهـا فى الحقـائق العلميـة، التى لاوجود لأحـدهـا دون وجود الأخرى (الحياة يقابلها الموت،والجنة يقابلها النار ، والصـــواب يقابله الخطأ ،والرحمة يقابلها العذاب وهكذا)، فالحياة الإنســـانية العصـــرية تقتضـــى التخلية قبل التحلية، أى التخلى عن التصــنيفات التى تأخذ شــكل المواجهة، أى وجهاً لوجه، بل تحتم الأخذ بمفهوم جنباً إلى جنب ،والذى يمتد على طول متصل ممتد، حيث أصبحت الظواهر النفسية تتجسد فى الواقع العيانى فى تشــكيله من التباينات ،لا نهاية لتباينها ،بتباين الســياقات البيئية. حيث ظهرت مع نهايات القرن العشرين ،وبدايات القرن الواحد والعشرين تباينات جديدة لظواهر قديمة لم تكن موجودة من قبل ،حتى وإن كانت موجودة ،إلا أنها ظهرت فيما بعد فى ثوب جديد ،وربما أخذت مســـميات جديدة ،وإن ترتب على ذلك أن نقاوم ما نحب ،ونتحمل ما قد نكرهه، فأول الشـــجرة بذرة ، وما أبعد ما فات ،فإن ما سوف يأتى سوف يكون قريبا، ولنعلم جميعا أن الأمل بالفعل، يزداد حينما يزداد الألم، فما من نجاح بدون أن يســبقه فشــل، وإن شــئت فقل عدم توفيق ،أو محاولات لم تصل بعد إلى حد النجاح.

وهناك خطأ شـــائع وهو إجماع آلى ميكانيكى على "ليوكانر :١٩٤٣" هو مكتشـــف الأوتيزم وبالرجوع ألى السـيد شـعيشـع عام ٢٠٠٥ فى كتابه الأسـس البيوكيميائية للأمراض النفسـية والعصـبية أشـار إلى أن الأوتيزم ظهر قبل أن يكتشـفه ويصـفه "ليوكانر " الذى كان يعمل فى العيادة النفسـية للأطفال بجامعة جونز هوبكنز من خلال نشـره لبحثه الشـهير عام ١٩٤٣ بعد قيامه بملاحظة (١١طفلا) توفرت فى هؤلاء الأطفال أربعة خصـــائص : تفضـــيل الوحدة ، الإصـرار على المشـابهة أو المماثلة ، حب التدقيق والتحسـين الروتينى ، والعجز عن مشـركة الإنتباه مع أطفال آخرين . وفى نفس الوقت تقريبا إسـتخدم "هانز أسـبرجر" الذى كان يعمل فى عيادة الأطفال فى جامعة فيينا أيضـــا مصـــطلح الأوتيزم . ويبدو أن كلاهما إســـتعار هذا المصـــطلح من مجال الطب النفســـى للكبار ، حيث كانت هذه الكلمة تســـتخدم للإشـــارة إلى الإنقطاع التدريجى عن التواصل مع العالم الخارجى ، وهى حالة يمر بها الفصاميون .

إن سلوك طفل الأوتيزم، شأنه شأن سلوك أى طفل، هو في صميمه تلك الوظيفة التي يضطلع بها ،هو هذه الدلالة، هو هذا المعنى الذي ينطوي عليه. ولا يصـدق هذا فحسـب بالنسـبة إلى السلوكيات المألوفة، بل يصدق أيضًا على كل السلوكيات المألوفة ،وغير المألوفة . وأكثر من هذا أن الســـلوك عادة ما ينطوى على جملة من الوظائف، لأنه عادة ما يرجع إلى جملة من الأسـباب المسـؤولة، مما يعرف بالتحتيم بأكثر من سـبب. ولعل ذلك ربما يرجع إلى إختلاف طبائع البشـر، فهى تختلف من ثقافة لأخرى، وفى الثقافة الواحدة بإختلاف مسـتوى عمل أجهزة الجسـم الفسـيولوجية والنفسـية (الأمزجة والرغبات)،وبالتالى تختلف المعاييرالحياتية، والسـلوكية ،والفكرية، والإجتماعية، والعلاجية من ثقافة لأخرى، فهناك ثقافات وضعت فى دستورها مبادىء تسير على خطاها ، كما أشرت سابقا إلى الدستور اليابانى على سبيل المثال لا الحصر، نجد من بين مبادئه مبدأ حيويا مفاداة " ضع الطفل أمامك وليس خلفك "، إيمانا بأهمية إتاحة الفرص أمام الطفل، لإكتشـــاف ذاته، والعالم من حوله ، حيث أن جعل الطفل فى المقدمة، والمواجهة، يفتح المجال للطفل لرؤية العالم، بمثيراته من أمامه، وعن يمينه، وعن يســـاره ،ومن فوقه، ومن تحته، وبالتالى يتطور نموه العقلى ،والإنفعالى، والإجتماعى بشكل جيد، بدلا من أن يسير خلف الكبار، الذين غالبا ما يحجبون الرؤية أمام الطفل، وفى مثل هذه الحالة يكون فى حالة من

التبعية، بدلا من الإســـتقلالية ،والثقة بالنفس ،اللذان يلعبان دورا محوريا فى إكتشـــاف الذات وإكتشاف العالم .

هل لو تحدثت مع طفل أوتيزم وكرر أو ردد ما أقوله أى ردد نفس الكلمات والألفاظ التى سمعها منى ، هل يعنى ذلك أننا (أنا والطفل) نتحدث نفس اللغة ؟ بالطبع لا ، نحن لا نتحدث نفس اللغة حتى ولو كانت الألفاظ والكلمات واحدة ، حتى على المســـتوى الفردى أى على مســـتوى الفرد الواحد ، لو تحدث بنفس الألفاظ فى موقفين مختلفين أو فى وقتين مختلفين فلا يعنى ذلك أن اللغة واحدة فى الموقفين ، أو فى الوقتين .وإذا تحدث شـخص ما فى موضـوع ما ، وطلب منه بعد خمس دقائق من بداية حديثه إعادة حديثه مرة أخرى ، فإنه ربما يســـتخدم ألفاظا لم يستخدمها خلال حديثه الأول .

من خلال الدراســـات الكلينيكية التى قمت بها مع بعض أطفال أوتيزم يمكننى القول بأن الحقل الســـيكولوجى لمثل هؤلاء الأطفال عادة ما يكون مســـتغلقًا على الفهم، وذلك حينما تكون عناصرالموقف ليست منتظمة وواضحة بالشكل الذى يتيح للطفل إمكانية الفهم، وربما يدفع ذلك بالطفل إلى العديد من السلوكيات العشوائية والتى ربما يؤدى أحدها إلى خفض التوتر، وإستعادة حالة الإتزان لديه، والتى لا ندرى أيكون الســـبب الحقيقى هو عدم إنتظام عناصـــر الحقل السيكولوجى أو نتيجة المعاناة الداخلية.

وإذا كان طفل الأوتيزم يعانى من صـــعوبة فى الإدراك، مثل الطفل العادى الذى يعانى من قصور نظر شديد أو طول نظر شديد حيث تصبح الرؤية مغبشة فى كل من الحالتين عند عدم إرتداء النظارة ، وبالتالى ينعكس ذلك على إدراك الطفل ويصـبح إدراكه مغبشًـا غير واضـح مما يترتب عليه عدم إتضـاح عناصـر الموقف لديه، وبالتالى لم يسـتطيع أن يتبين العلاقة بين هذه العناصر.

وعلى الرغم من أن العديد من سـلوكيات أطفال الأوتيزم تكون عديمة المعنى بالنسـبة للمحيطين بالطفل، إلا أنها ليســـت كذلك بالنســـبة للطفل نفســـه، فهى إما أن تكون فى ذاتها هدف لدى الطفل، وإما أن تكون مجرد وسيلة يصل بها الطفل إلى هدفه ايا كان هذا الهدف.

إن سلوكيات الطفل غير المرغوب فيها بالنسبة إلينا وفعل مثل هذه السلوكيات كالتصفيق بشكل تكرارى وآلى أو ايماءة الرأس إلى اليمين واليسار بشكل آلى عادة ما تكون مرغوبه للطفل(الوظيفية وتعني أن كل سلوك لابد وأن يكون له وظيفة وأحيانًا أكثر من وظيفة والذى ينطوى فى كل الاحوال على خفض التوتر).

وربما تؤدى أى محاولة لإيقاف مثل هذه السلوكيات بالشكل وبالدرجة التى لا تزعجنا إلى تثبيتها لديه، وتكرارها لما لها من دلالة لديه. وتكرار مثل هذه السلوكيات لدى بعض أطفال الأوتيزم قد يكون من علامات النجاح وسرور الطفل ،وطالما يوجد نجاح ويعقبه شعور بالسرور أو الفرح إذن لابد وأن يقوى الارتباط بينهما (قانون الاثر). فمتى تساوت جميع الظروف فإن الطفل يميل إلى تكرار السلوك الذي يصاحبه أو يعقبه نجاح أو سرور، ويميل إلى تجنب السلوك الذي يصاحبه أو يعقبه فشل أو كدر. إذن فالسر وراء التكرار هو ما تتيحه عملية التكرار من فرص التعزيز الذاتى الداخلى.

ولا شك أن تعديل مثل هذه السلوكيات يبدأ أولا من الأسرة ومتابعة الحالة المزاجية والإنفعالية للطفل ، حيث تكون الإنفعالات فى مثل هذه الحالات نزوعية وبالتالى تنعكس آثارها على فسيولوجية عمل أجهزة الجسم .

فالعملية العلمية الحقة لا تعتمد على آلية التكرار والتواتر، وإذا كان التواتر والتكرار يسمح بالتفسير والتنبؤ فالأولى والأهم هو الفهم ، وإذا ما نظرنا إلى الأوتيزم من هذه الزاوية فسوف نجد تباين كثير لأطفال الأوتيزم ،هذا التباين نتيجة لتباين السياقات البيئية فالأعراض ودلالتها لا يمكن أن تتضح إلا بالرجوع إلى الشخصية فى وحدتها الكلية ضمن ظروفها البيئية. وبالتالي يمكننا القول بأن معايير تشخيص الاوتيزم في مصر والعالم العربى ربما تختلف فى بعض جوانبها عن المعايير التى وضعها الدليل التشخيصى.

أيضا نحن بحاجة إلى إرادة قوية للوالدين ولكل مهتم بطفل الأوتيزم ، كما أننا بحاجة ماسة إلى رعاية وتأهيل أطفال الأوتيزم وإعدادهم للحياة. وهذا يتطلب منا تقديم الرعاية والبرامج التربوية والتأهيلية والتدخلات النفسية والإجتماعيةوالتعليمية لهم ولأسرهم ودعم الأسر. وهنا تواجهنا بعض الصعوبات يأتى فى مقدمتها إنكار بعض الآباء أن طفلهم مصاب بالأوتيزم وينتج عن هذا الإنكار أن يتم التعامل معهم بشكل غير مناسب وأحياناً يعاقب الأباءالأبن طفله الأوتيزم

على سلوكياته . ولكى يتغير طفل الأوتيزم فلابد على المحيطين به أن يتغيروا أولاً وخاصة من الناحية الثقافية. تلك هى البداية المحتومة لأى عمل علمى ، فنقطة البداية فى فهم الأوتيزم ذلك الإضطراب النمائى العصبى الذى يصبح يوما بعد يوم من أكثر الإضطرابات النمائية تأثيراً على شخصية الطفل بأسرها حيث أنه يتناول جميع جوانب نمو الطفل العقلية (المعرفية)، والجسمية (البدنية)، والإنفعالية (الوجدانية)، والإجتماعية وما يترتب على ذلك من آثار سلبية . إن مبدأ إنسانية طفل الأوتيزم يحتم ضرورة أن تدعم الأنظمة العلمية والثقافية فى كل بلاد العالم فئة الأوتيزم، لأنه من الممكن أن تؤدى أى محاولات للإهتمام بهذه الفئة إلى إحداث تغيرات حتى ولو كانت بسيطة لم تصل إلى حد الدلالة الإحصائية ، فقد أثبتت نتائج بعض الدراسات أن بعضا من أطفال الأوتيزم (النقى) يمكن تحسنهم بدرجة ملحوظة، كما يمكنهم أن يتعلمو ويتطوروا ، خاصة بعد أن أصبح الحاضرأفضل من الماضى بعد إكتشاف العديد من الأساليب، والتقنيات، ووسائل التشخيص، والتطور الثقافى لغير المتخصصين (الأسروغيرهم)والمتخصصين التى تساعد كثيرا فى التشخيص وتقديم خدمات التدخلات النفسية والإجتماعية إلى الدرجة التى أصبح معها التفاؤل قد وصل إلى درجة كبيرة. ولا شك أن هذه المحاولات ذات قيمة كبيرة وعملية خاصة فى مجال تعليم ذوى الاحتياجات الخاصة حيث يؤثر التحسن البسيط على أسلوب حياة طفل الأوتيزم وأسرته، فهى ضرورية لأن يتعلم أطفال الأوتيزم كيفية الخروج من حالة الإسراف فى التقوقع داخل الذات إلى الإنفتاح على العالم الخارجى، والتوحد Identification مع آخرين فى العالم الخارجى أى الإنتقال من التمركز حول الذات إلى التمركز حول الآخر، وزيادة النسيج الإجتماعى بتعلم كيفية المبادرة والإستجابة للتفاعلات بأسلوب ملائم وليس مجرد تحسين التوازن بين المبادرات ،والإستجابات الناجحة وغير الناجحة. فقد أثبتت العديد من نتائج الدراسات أن الكثير من أطفال الأوتيزم لديهم القدرة على ممارسة وتعميم المهارات التى يتعرضوا لها من خلال البرامج والإستراتيجيات المتنوعة، وبذلك يمكن دحض الأسطورة القائلة بأن المصابين بالاضطرابات النمائية لا يتغيرون.

ومن الجدير بالذكر أن هناك تداخل وخلط من نوع آخر يكمن فى إستخدام مصطلح الإجترارية للإشارة إلى الأوتيزم. مشكلة حقيقية تصعد بنا إلى أعلى درجات الهاوية لماذا يحدث تصارع وتناحر في الأيدولوجيات الفكرية فى علوم الميتافيزيقا (علوم ما وراء المادة) بينما يختفي الصراع

في علوم المادة؟. في العلوم الإنسـانية نرى متاهة الفلاسـفة والمنظرين، ففى علم الأهواء والنظريات نجد أن كل فريق يعمل جدران وفواصـل حتى لا يصـل علمه إلى الأخر بإعتبار أن كل فريق أو كل واحد يخدم هواه وذلك لإختلاف الطبيعة الإنسـانية من مجتمع لأخر، فالميتافيزيقا تتبع الأهواء بينما العلم المادى يتبع الحقيقة . ولعل ميدان الصـحة النفسـية وعلم النفس أحد الميادين التى تأثرت كثيراً فى الآونة الأخيرة بالثقافة العامة السـائدة فى مجتمعاتنا العربية التى تعترف بالإطلاق واليقين بأكثر مما تعترف بنسـبية الحقائق والموجودات فهى لا تطيق معاناة إكتشاف الحقائق المركبة بقدر ما هى شديدة الحماس والإنحياز للحقائق البسيطة. ولا شك أن نزعتها اليقينية والمطلقة تنزع إلى التأكيد والأحادية على حساب النسبية والتنوع ويبدو أن هذه الظاهرة الثقافية قد إنعكست بشكل سلبى على العديد من المجالات فى حياتنا، فلم يكن مستغرباً أن تتلون أفكارنا ومناهج تحليلنا ومواقفنا الفكرية والعلمية والسياسية والإقتصادية بهذه الرؤية القاطعة الأحادية اليقينية، وكانت النتيجة ما نشاهده الآن فى ميدان البحث العلمى حيث تضاءلت قدرتنا على تحمل الإختلاف وإدارته وسرعان ما يتحول إلى خلاف، وبدلاً من أن ندير إختلافنا بوسائل الحوار المعروفة أصبحنا نحسم خلافنا بأدوات أخرى باترة وقاطعة ونافية، أى إسـتبعدنا من مجال حياتنا حوار العقول وإقتصـر الأمرعلى حوار العواطف الذى تكون نتائجه معتمدة على اليقين الذاتى لا العلمى وما يصاحبه من تعصب وعنف. وإستناداً إلى ما سبق أود أن أوضح أن إضطراب الأوتيزم وما شهده من خلافات وليس إختلاف حول المسمى السائد فى العالم العربى ، أى حالة الفوضـى فى المصـطلحات قد أثر كثيراً على منظومة الحياة، وعلى منظومة التفكير، وما صاحب ذلك من إختلال فى منظومة الحياة، وإختلال فى التفكير، فالعبرة بعموم اللفظ وليس خصوصية السبب. ويعد التركيز على خصوصية السبب دون الإهتمام بعمومية اللفظ من أوائل خطوات عدم الإنتماء أو فقدان الإنتماء للحياة العلمية حيث يكون الناتج ظهور مصـطلحات خالية من المعنى، مصـطلحات حية وميتة، فالمكان لا معنى له إذا افتقد إلى المكانة، فالذات الجسـمية تفنى بينما الذات النفسـية تبقى. فالمكانة تتبدى فى سـعة الصدور وليس فى سعة القصور. هذا وتقتضى العملية العلمية الحقة أن نلجأ فى بعض الأحيان إلى التعريب بدلا من الترجمة لأن المعنى اللغوى يجب أن يتطابق مع الدلالة التفسـيرية تجنبا لما قد يحدث من خلط وإزدواجية ،وهناك مصـطلحات ليس لها ترجمة وإنما تعريبها يؤدى إلى الدقة والفهم من أمثلتها (هسـتيريا- نرجسـية- تكنولوجيا – ديمقراطية – قنصـل- كلينيكى

)...الخ وخلال البحث والإطلاع وجدت من المستحيل ترجمة هذا المصطلح إلى التوحد وأن الحل يكمن فى التعريب شأنه شأن العديد من المصطلحات الأخرى كالهستيريا ، ووجدت أن مصطلح هستيريا بوجهيه الأجنبى والعربى واحد فهستيريا في اللغة الأجنبية مشتق من لفظ هستيرون وتعني رحم. ومن المثير للإعجاب أن القدماء المصريين هم أول من إكتشفوا مرض الهستيريا، حيث كانت تنتاب المرأة فى ذلك الوقت أعراضًا هستيرية نتيجة شمها لروائح عطرية معينة تؤدى إلى تحرك الرحم من مكانه وهذا يؤدى إلى ظهور أعراض هستيرية، وكانت طريقة العلاج لديهم فى ذلك الوقت أيضًا بجعل المرأة تشم روائح عطرية أخرى معتقدين أن مثل هذه الروائح العطرية تساعد على عودة الرحم إلى مكانه مرة أخرى وإستقراره ومن ثم تختفى الأعراض، ومنذ ذلك الوقت إلى قبل نهاية القرن التاسع عشر الميلادى وأثناء قيام (فرويد) بتدوين ملاحظاته لفتى يبلغ من العمر ١٨ عامًا تقريبًا وفتاة يبلغ عمرها تقريبًا ١٨ عاماً ، هاتان الحالتان قد عهد (بلوير) أستاذ فرويد له فى ذلك الوقت لتدوين ملاحظاته بمستشفى سالسبتير بفرنسا خلال رحلة فرويد النمساوى الأصل لإستكمال دراسته العليا لاحظ فرويد وبلوير أن هناك تشابه كبير فى الأعراض لدى الفتى والفتاة، وكانت هذه الأعراض أعراض هستيرية ، وهنا كانت نقطة التحول الكبير والتى أصبحت منذ حينها الهستيريا مرض يصيب الرجال والنساء على حد سواء. هذا وقد أربكت مثل هذه الخصائص الثقافية السائدة فى المجتمع حركة البحث العلمى فى بعض جوانبه، وأعاقت إنطلاق المجتمع فى العديد من المجالات، بل شجعت وما تزال على سيادة العديد من التموجات الفكرية والعقائدية والسلوكية السلبية، وما صاحب ذلك من ولاءات طائفية وحزبية هدامة ساعدت كثيراً على تفشى أخطر أنواع الإستقطاب وهو الإستقطاب العلمى.

ورغم أننا نعيش الآن عصرًا جديدًا خاصة بعد أن تقدمت التكنولوجيات بشكل هائل وأصبح العالم من خلالها قرية صغيرة أصبح الكل يسمع الأخر، أصبح الكل يمكنه الوصول إلى المعلومات فى فيمتو ثانية، ورغم كل هذا التقدم الهائل إلا أن أخطر الأمراض فى العالم إنتشارا الآن الأمية والجهل، والجهل أصعب بكثير من الأمية، فالأمية تعنى عدم المعرفة، بينما الجهل هو معرفة ولكنها معرفة مغلوطه مقلوبة ومقولبة وعكسية والجهل دائما وأبدا يؤدى الى المتاعب والتشويه والتحريف .

ولكن لماذا أقبل الكثرة على ترجمة المصطلح إلى التوحد، الوحدوى، الذاتوية، ... إلخ

مع إعمال قليل من العقل والتعقل، فالبصـر ليس كالبصـيرة، كما أن الترادف لا يوجد في اللغة الواحدة، فالترادف عادة ما يكون بين لغتين كاللغة العربية واللغة الإنجليزية، والفارق كبير بين اللغة العربية وهي لغة إعرابية، والإعراب يعني البيان أو الوضـوح فأبان يعني كشـف وأوضـح، وإذا ما رجعنا إلى لفظ التوحد نجده ترجمة لمصـطلح فى اللغة الإنجليزية والتوحد من علامات السـوية فإذا أردنا نهضـة فلابد أن نتوحد، والتوحد مع القدوة مطلب من مطالب الحياة والنمو الصـحيح، فحينما يتوحد الطفل مع والده أثناء الصـلاة أو اللعب فهذه علامة إيجابية من علامات الحياة الصـحية. فالتوحد يعني أن يوجد(بضـم الياء وكسـر الجيم) الفرد إمكانيات كبيرة داخلة ليسـت فيه، فحينما يتوحد طفل صـغير مع معلم ويقوم الطفل بعمل المعلم مع شـقيقته الصـغرى فهذه علامة إيجابية أى أن الطفل إسـتدخل إمكانيات تفوق سـنه وهي إمكانات المعلم الكبير الراشـد. هذا وقد يأخذ التوحد صـورًا وأشـكالاً أخرى كالتوحد مع المحبوب، المحسـود، المعتدي، أولى ثانوي...إلخ، والتوحد في الأحلام مثل التوحد مع الزوجة التي تعبر عن أمه، وتصـور حالتها(مريضـة، سـعيدة)، والتوحد مع الزوج الذي يعبر عن أبيها (سـعيد ، حزين ، ندمان ، متدين...إلخ). وبالرجوع مرة أخرى إلى لفظ التوحد إعتقادا بأن طفل الأوتيزم متقوقع داخل نفسه تقوقع مسرف الشدة،فلماذا هذا التقوقع مسرف الشدة؟ ربما لأن مثل هذا الطفل يشعر بنوعين من الخطر وهما الخطر الداخلي والخطر الخارجي وهذا احتمال قد يكون صـائبًا وقد يكون غير ذلك. وربما يكون سـعي طفل الاوتيزم إلى العزلة ويرغب في أن يكون وحيدًا هل هذا واقع حقيقي للطفل؟ ربما يكون لدى وجهة نظر أو رؤيا أخرى وهي أن الفطرة الانسـانية (للأسـوياء وغير الأسـوياء) تقتضـي أن ينتمى الطفل إلى جماعة معينة وعادة ما يكون الانتماء في بداية حياة الطفل إلى الأسرة، ومع النمو ودخول الطفل إلى الحضـانة، وإلى المدرسـة، وإلى ... حتى الجامعة، والمهنة أوالوظيفة فأنه يجد في نفسـه النزعة إلى الإنتماء إلى مثل هذه الجماعات. حتى بالمعني العلمي الحقيقي إذا كان وجودي داخل جماعة ولي دور فيها فهذا لا يعنى بالضـرورة أنني أنتمي إلى هذه الجماعة، فربما أعمل ضـد هذه الجماعة وأنا ضـمن أعضـائها حيث أعمل لصـالح جماعة أخرى، وقد يكون من هو خارج الجماعة ويعمل لصـالح هذه الجماعة من بعيد، وهذا ما نلمسـه في العديد من أطفال الأوتيزم الذين يتميزون بحسـاسـية مرهفة ومشـاعر دفينة تتبدى في صـور متعددة ليس من الضـروري أن تتبدى في العلاقات الصريحة، فقد تكون ضمنية غير مباشرة وقد تظهر في اللعب أو الرسم أو الإيكولاليا (المصاداة

المباشرة الأنية) أو البللاليا (المصاداة غير المباشرة أو الآجلة) . وعلى الرغم من أن الكثير من أطفال الأوتيزم يقومون بدفع كل من يقترب منهم حتى ولوكان الآباء إلا أن هذا لا يعني بالضرورة أنه يفضل الإنعزال، فقد أكدت الخبرات الفعلية أنه عند تعرض بعض أطفال الأوتيزم إلى مثير مفزع بشكل مفاجئ فإنه يندفع بكل قوة في أحضان أمه أو والده أو شقيقة أو أي شخص أخر.

قضية الذكاء

إرتبط مفهوم الذكاء بالعمليات العقلية المتعلقة بالذاكرة والمعرفة والإدراك والطلاقة والاستدلال والقدرة العددية والانتباه والاستيعاب وهناك العديد من النظريات التي حاولت تفسير الذكاء، ومن أوائل النظريات التي بحثت في الذكاء نظرية(سبيرمان) والتي تنظر إلى الذكاء بصورة بسيطة فالناس يختلفون في مدى ما يمتلكون من طاقة عقلية، وفى نفس السياق جاء كل من و(جيلفورد) و (كاتل) والذين حددوا أبنية القدرات العقلية بتفصيل أكثر. ثم جاء (ستيرنبرج) والذي أقترح نظرية تقوم على تحليل مكونات الذكاء وتحليل للأساليب التي يستخدمها الإنسان عندما يقوم بحل المشكلات وقد أعتبر أن هناك مظاهر أساسية للذكاء يجب أن تقوم عليها النظرية المكتملة في الذكاء العملي و الذي يستخدم في مواقف الحياة اليومية وليس من السهل قياسه لعدم سهولة حصر مواقف الحياة، والذكاء الإبداعي والذي يتجلى في اكتشاف حلول جديدة للمشكلات الجديدة أو اكتشاف حلول مختلفة غير مألوفة.

فالعامل المشترك بين هذه النظريات هو الإتفاق على أن الذكاء هو بنية متكاملة والأداء في مهمة ما، يرتبط بالأداء في مهام أخرى. ومن البدهى أن هذه النظريات تركز على الجانب الخارجي لعملية التعليم و التعلم ولم تصل فى حقيقة الأمر إلى لب أو جوهر المتعلم و تحليل قدراته الفعلية ، والإقتصار على تعريف الذكاء بأنه ما تقيسه إختبارات الذكاء أو القدر على مواجهة المواقف وحل المشكلات أوقدرة على التحليل والتركيب والتمييز والاختيار، وعلى التكيف إزاء المواقف المختلفة.

والذكاء حسب النظريات التقليدية خاصية تختلف قوتها من فرد إلى آخر، ولإختبار قوة الذكاء لدى الأفراد ، وضع علماء النفس مجموعة كبيرة من الاختبارات وطلبوا منهم أن يجيبوا عنها، ومن خلال هذه الحلول يقومون بتحديد مستوى ذكاء الفرد . و قد إعتمدت معظم هذه الإختبارات

إما على كتابة مفردات أو القيام ببعض العمليات الحسابية أو إدراك العلاقة بين بعض الأشكال ، ولكنها في المقابل أهملت مواهب أخرى كالمواهب الرياضـــية والمكانية واللغوية والطبيعية والحركية والمنطقية والموسيقية التي يمتلكها كثير من الأفراد ولا يجدون ما يناسبهم في اختبارات الذكاء التقليدي

وفى عام ١٩٨٣ حدثت ثورة علمية عندما أوضــح هوارد جاردنرمن خلال ملاحظته لأطفال ما قبل المدرسة عدم صحة ما ذهبت إليه هذه النظريات مؤكدا بأن كثيرا من معلمي أطفال ما قبل المدرســة ، يدركون أنه يمكن أن يكون لدى طفل معين مهارات العلاقات بين الأشــخاص أو ما يسـمى الذكاء الاجتماعي، بينما يكون لدى طفل آخر ذكاء رياضــي . هذه الميول والنزعات لا تظهر فجأة بل من خلال مرور الأطفال بمواقف وأنشطة تحتوى على هذه الذكاءات.

وحسب نظرية جاردنر يعد تحديد الذكاء بالطريقة التقليدية ليس دقيقا. فالطالب الذي يتعلم عملية الضرب الحسابية ليس أذكى من الطالب الذي يجد صعوبة في تعلمها. كل ما يحتاجه الطالب الثاني هو اعتماد أســـلوب مختلف عن الطالب الأول وقد يتفوق في مجالات أخرى عن الأول مثل الرياضة أو الموسيقى أو قد يكون مفهومه للرياضيات أعمق لما هو متعارف عليه

وبحســـب نظرية جاردنر عن الذكاءات المتعددة في كتابه " الأطر العقلية، رفض فكرة الذكاء الواحد و مؤكدا على وجود العديد من القدرات العقلية المستقلة نسبيا لدى كل فرد أطلق عليها " الذكاءات البشرية " لكل منها خصائصها وسماتها الخاصة بها .وهذا الأمر ينطبق على العديد من أطفال الأوتيزم ، فمن الصعب الإعتماد على الذكاء بمفهومه التقليدى على أطفال الأوتيزم

هذا وقد إتخذ جاردنر ســبيلا مختلفاً في محاولته تفســير طبيعة الذكاء. وقد إســتمد نظريته من ملاحظاته للأفراد الذين يتمتعون بقدرات عقلية خارقة في بعض المجالات ، لكنهم لا يحصــلون في إختبار الذكاء إلا على درجات متوســـطة أو دونها ، مما جعله يعتقد أن الذكاء مؤلف من كثير من القدرات المنفصلة والتي يقوم كل منها بعمله مستقلاً إستقلالاً نسبياً عن الآخر. و ترى النظرية أن الناس يملكون أنماطاً فريدة من نقاط القوة والضــعف في القدرة العقلية ،وكل الأطفال يولدون ولديهم كفاءات ذهنية متعددة منها ما هو ضعيف ومنها ما هو قوي.

وفى عام ١٩٩٠، أشــار جاردنرإلى خمس قدرات إضــافية وهي، بالإضــافة للتواصــل اللغوي والتفكير المنطقي، الذكاء البصـــرى والمكانى، الذكاء الموســـيقى والنغمى، الذكاء الجســـمي

والعضـــلي، ذكـاء المعرفـة الـذاتيـةومعرفـة النفس، ذكـاء معرفـة الاخرين، والـذكـاء عـالم الطبييعى والذكاء التعليمى ،فالذكاء ليس بُعد واحد فقط بل عدة أبعاد. ثم إن كل شـخص متميز عن الآخرين. والذكاء يختلف من شخص إلى آخر.

وبناء على ما ســبق أقترح على الباحثين فى مجال الأوتيزم إن لم يكن بصــفة عامة فى مجال الصـــحة النفســـية والتربية الخاصـــة (ذوى الهمم) الأخذ بوجهة نظر جاردنر والأخذ بنظرية الذكاءات المتعددة بدلا من الذكاء التقليدى .

ولعل ما جعلنى أنافح من أجل الأخذ بمفهوم الذكاءات المتعددة فى مجال الأوتيزم ما شـــهدته ساحات العالم أجمع منذ عدة قرون أذكر منها على سبيل المثال لا الحصر ما يلى :

العديد من أعظم عباقرة وعظماء العالم كانوا يعانون من بعض أعراض الأوتيزم والتى أرى أنها أعراض للأوتيزم متخفية والتى توجد عند الكثير من العاديين والعباقرة والمتفوقين فى شـــتى المجالات نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر ما يلي:

(توماس جيفرسـون) مفكر سـياسـى شـهير وأحد الآباء المؤسـسـين للولايات المتحدة الأمريكية والمؤلف الرئيسي لإعلان الاستقلال الأمريكى (١٧٧٦م) وبعدها أصبح الرئيس الثالث للولايات المتحدة الأمريكية فى الفترة من ١٨٠١إلى ١٨٠٩ وأحد أشهر رؤسائها.

(إســـحق نيوتن) الذى دفعه الأوتيزم إلى إعتزال الناس، وقضـــى معظم وقته فى حديقة منزله وصاحب نظرية الجاذبية التى أهداها إلى العالم.

(توماس أديسـون) عالم ومخترع أمريكى، طرد من المدرسـة عدة مرات وهو صـغير كانت بداية الطرد بعد ثلاثة أشـهر فقط وكانوا يرون فيه أنه متخلف عقليًا، لم يسـتطع القراءة إلا فى الثالثة عشـر من عمره، وكان يعايش وهنا التعمد لإختيار لفظ التعايش وليس المعاناة لأسـباب سـوف تبدي فيما بعد وكان تربيته رابع مخترع لكثرة إنتاجاته التاريخية حيث إمتلك وحده ١٠٩٣ براءة إختراع تحمل إســـمه، فكيف لإنســـان يعيش حياته معاناة ويمتلك هذا الكم الكبير من براءات الإختراع.

(بيتهوفن) مؤلف موسيقى المانى، من أبرز عباقرة الموسيقى فى جميع العصور والأزمان، أبدع أعمالاً موسيقية خالدة، له يرجع الفضل الكبير والعظيم فى تطوير الموسيقى الكلاسيكية، ومن الجدير بالذكر أن نذكر هنا أنه قدم أول عمل موسيقى رائع وعمره ثمان سنوات.

(ألبرت أينشتاين) أحد أهم وأعظم ملوك العلم فى الفيزياء، صاحب تطوير النظرية النسبية أحد ألقابه العبقرى، لم يتكلم إلا فى سن التاسعة من عمره، فى بداية حياته وقبل أن يكتمل العام الأول من العمر أقر أحد الأطباء الذى عرض عليه بأنه لم يعيش وأنه متخلف عقليًا وسوف يموت قريبًا (الأعمار بيد الله) وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا وما تدرى نفس بأى أرض تموت .

عانى أينشتاين من(الدسلكسيا) عسر القراءة، أيضًا كان لا يجيد التعبير عن نفسه، وهل عدم إجادة الفرد التعبير عن نفسه يعيبه ؟ قد يرجع السبب من وجهة نظرى الشخصية أن ما يستطيع التعبير عنه قد يفوق من هو جالس أمامه فالصعوبة ليست فيه وإنما الصعوبة قد تكمن فى المستقبل، وخير دليل حصوله على جائزة نوبل فى الفيزياء عام ١٩٢١م.

(مارك توين) كاتب أمريكى شهير وصف بأنه أعظم الساخرين الأمريكيين فى عصره، وقد لقب بأبو الأدب الأمريكى، وصف بأنه مصاب (معايش المؤلف) بالأوتيزم، منحته إحدى الجامعات الكبرى الشهيرة وهى جامعة أكسفورد درجة الدكتوراة الفخرية عام ١٩٠٧.

هناك العديد والعديد منهم كيم أحد أفضل خمسين عبقرى خلال القرن الماضى والبالغ من العمر حاليًا السبعين عامًا – داروين ، هتلر، بيل جيتس قائد ثورة البرمجيات ومؤسس مايكروسوفت أغنى رجل فى العالم .كل هؤلاء عايشو بعض أعراض الأوتيزم المتخفى وهو شائع لدى الكثيرين.

أنا شخصيًا على درجة كبيرة من الإيمان والوعى بأن لدى بداخلى بطل حقيقى يعايش الأوتيزم لحظات عديدة من حياتى، يعطينى القوة، إن من يعايش بعض أعراض الأوتيزم ليس بالضرورة مضطربًا وليس مريضًا.

أيضًا من خلال إستقراء العديد من السير الذاتية وكم الحالات الهائل الذى عشت معه من أطفال وأسر، أيقنت بدرجة كبيرة أن الأوتيزم يمكن أن يكون درة ،لعل سبب قولى ذلك أن

دخولى فى عالمهم جعلنى أكتشـف أن منهم ولد فى عالم لا يفهمهم، عالم يهمل حقوقهم بشـكل كبير (ليسوا بالدرجة التى جعلت من بعض الحوامل يتمنين أن يلدن طفل مصاب بالسرطان ولا يكون مصاب بالأوتيزم) بل منهم ربما يسبق عصره رؤيتهم إلى المستقبل أوسع وأرحب، يرون في الواقع وفى الخيال ما لا نســتطيع نحن أن نراه وهنا أعود إلى ما قاله ما لينوفســكى "إننى سأعيش فى التجربة مع المريض، وألاحظ صدى سلوكه فى نفسى، وسأتبين اللحظة التى أشعر فيها وهو ينزلق إلى عالمه المرضى، أستمع إليه، وأكتب ما يقول، وما يستشعره، وسأحصل من ذلك على صــورة لعلاقته هو المريض بى الســوى، هل نفســيته مختلفة إختلافًا جوهريًا عن نفسيتى؟

وهنا أستطيع أن أصدق هذا على الأوتيزم فليس هنالك من حقيقة إلا فى اللحظة التى نبلغ فيها إلى مركز الشخصية. وأيضًا أتذكر في هذه اللحظة ما قاله جان قال "نحن لا نتكلم نفس اللغة، وإن إستخدمنا نفس الألفاظ. فالدلالة الحقيقية لمسالك الشخص تكون خفية (لاشعورية). فالأمور ليست أبدًا على النحو الذى تبدو عليه فى شعور صاحبها.

وهنا أتســاءل *لماذا يبدو لدى البعض إن لم يكن الكثير أن طفل الأوتيزم هو الأضــعف مقارنة بنظيره العادي؟ *ولماذا يكون طفل الأوتيزم هو الأضعف والعادى هو الأقوى؟

*هل شــاهدنا كل جوانب الحياة لدى كل منهما؟ أليســت هناك جوانب خفية قد تخفى الضــعف وقد تظهره، وقد تخفى القوة وقد تظهرها، قد نعيش خدعه أو وهم أن الطفل العادى به ميزات وقدرات غير متوفرة لدى طفل الأوتيزم وإن كانت الحقيقة قد تبدو عكس ذلك في بعض الأحيان

فالمشكلة الرئيسية أنه توجد مشكلة مماثلة فى كل سيكولوجية من السيكولوجيات وسببها الشكل والقاع ووفقًا لكل سـيكولوجية من تلك السـيكولوجيات يكون الخطر وهو التعرض للزيادة من القيمة والتى قد نأخذ شـكلاً إيجابيًا وقد تأخذ شـكلاً سـلبيًا كأن أقول جميل وفوق الجميل، وأن أقول حقير وفوق الحقير.. إلخ.ولا يعنى هذا أنه لا يوجد إضطراب الأوتيزم .

على الرغم من تعدد الأعراض التى يمكن من خلالها تشـخيص العديد من الحالات بالأوتيزم ، فإننا نجد بعض أوقلة من أطفال الأوتيزم لديهم صفات إيجابية بالإضافة إلى الصفات السلبية ، فمنهم من يتمتع بذاكرة عميقة ورحبة جداً، ومنهم من يتصـف بذكاء غير لفظى عال أو بنوع من الذكاءات المتعددة كالذكاء الشـخصـى، الذكاء البدنى، الذكاء البصـرى، الذكاء الرياضـى، الذكاء الطبيعى، الذكاء الموسـيقى ،الذكاء الحسـابى ،الذكاء الفنى كالرسـم والنحت ،خيال عال بدرجة كبيرة .وهناك أمثلة عديدة شهدها الواقع وما زال (كيم المصاب بإضطراب الأوتيزم منذ الطفولة والبالغ من العمر حاليا الخامسة والسبعين عاما والمصنف ضمن أفضل خمسين عبقرى على مستوى العالم وغيره سابقا وحاليا) ومنهم من يتصف بحساسية عالية مرهفة ، ومنهم من يستطيع التقليد بالصوت أو الحركات، أو الصوت والحركات، ومنهم من يستطيع التجاوب بشكل جديد مع بعض الأشياء، ومنهم من يتصف بموهبة فى الرسم، الرقص، الموسيقى، الرياضيات، التصـوير، الرياضـة، ومنهم من يتصـف بعاطفة حياتية، ومنهم من يتصـف بأداء عالى تجاه بعض التقنيات الحديثة مثل الكمبيوتر، الفيديو جيم، ومنهم من يتصـف ببراعة فائقة فى الفك والتركيب، ومنهم من يستطيع القراءة فى وقت أقل من العادى، ومنهم من يستطيع قراءة الصفحة اليمنى بالعين اليمنى وفى نفس الوقت يقرأ الصفحة اليسرى بالعين اليسرى؛ ويتصف بعضهم

بوفرة فى المعلومات عن بعض الأشياء أو الأماكن التى يشاهدها أو يسمعها، ومنهم من يميل إلى إختبار أمور جديدة بطريقة أعمق وأغنى، ومنهم من يظهر ردود فعل ثرية تفوق الكثير من العادين وكذلك حل المشكلات، وفى هذا ما يذكرنا بما يسمى بحشد القدرة مثال حصول أحد الجراحين المشهورين على درجات متدنية فى كل الإختبارات والمقاييس التى تستخدم فى الكشف عن المهارات اليدوية ودرجة وجودها وكذلك بعض مقاييس الشخصية والميول والإتجاهات ، ورغم كل هذا كان هذا الجراح يحظى بمهارة وشهرة كبيرة فى الجراحات التى أجراها ، ولا يقتصر الأمر عند هذا الجراح بل تضمن أيضا العديد من الحالات الأخرى كالعزف على آله موسيقيه والرسم والنحت والتصوير وغيره وهذا يسمى بلغة العلم مصطلح حشد القدرة حيث تتركز طاقة الفرد ومهاراته فى جانب معين ومنهم من يتجاوب بشكل جيد مع الأشياء أو الاشخاص أو الحيوانات أو الطيور، ومنهم من يستطيع القيام بعمليات حسابية فى وقت قياسى ، كأن يقوم بعمليات ضرب أو قسمة أو جمع أو طرح فى وقت أقل من الوقت الذى يستغرقه الحاسب الآلى، لدرجة أن هناك من تم تصنيفه ضمن أفضل خمسين عبقرى على مستوى العالم كما فى حالة (كيم) بريطانى الذى يبلغ من العمر الآن الخامسة والسبعين عاماً، ومنهم من يتصف بمشاعر قوية وجياشة كما فى حالة (خان) الذى بيلغ من العمر الخامسة وأربعين عاماً تقريباً، ومنهم من يجيد الحجل (القفز) على رجل واحدة ببراعة وبمعدلات أعلى من العاديين، ومنهم من يجيد ضرب الكرة بالمضرب ببراعة، ومنهم من يجيد إستخدام كلا اليدين فى أنشطة متعددة ببراعة، ومنهم من يتمتع بدرجة عالية من الكفاءة فى الدوران حول الذات (البالية)، ومنهم من يتمتع بدرجة عالية من الكفاءة فى فن البانتومايم، هذا ومن الضرورى بذل الوسع والجهد فى

محاولة جعل طفل الأوتيزم يشعر بالراحة وعدم الإجهاد وتجنب أى أعمال تقلل من شأنه ودمجة فى أنشطة يحبها ويختارها وأن تكون الوالدية حنونة، وبناء الثقة، وتجنب الأحكام السلبية.

لاشـــك أن للبحث العلمى أهمية كبيرة في تلك الحقبة التي نعيشـــها، فالأبحاث العلمية هى الخيارالإســتراتيجي للتنمية المســتدامة.وتعد الدراســات الســابقة جانبا رئيســا من جوانب البحث العلمى ، ومن المألوف أن الدراســات الســابقة تقدم العديد من المعلومات التي ترتبط وتتعلق بموضــوع البحث العلمي، هذا بالإضــافة إلى أنهاتجيب عن عدد كبير من الأســئلة التي تدور حول موضوع البحث العلمي الذي يقوم به.كما أنها الوقت والجهد على الباحث لأنها تمنحه فكرة عامة عن موضوع بحثه العلمى.

ويجب عند الإستعانة بالدراسات السابقة فى العلوم الإنسانية أن نضع فى إعتبارنا مجموعة من الإعتبارات يأتى فى مقدمتها الإختلافات الثقافية والعادات والتقاليد وكل أشكال النظم الإجتماعية والنظام التعليمى والمناهج والعلاقات الزواجية وطرق التنشـــئة وعلاقات الأباء بالأبناء والثقافة العقائدية والدينية والنظام الصحى والعلاجى ووسائل النقل .....إلخ.

وفى مجال الأوتيزم خاصــة أجد بعض الباحثين يتبعون بشــكل ميكانيكى آلى بعض الدراســات الأجنبية وخاصة البرامج الإرشادية والعلاجية وغير ذلك من إستراتيجيات رغم الإختلافات الكبيرة بين مجتمعنا والمجتمعات الأخرى ، والمثير للدهشـــة أن النتائج التى يصـــل إليها الباحثين فى ثقافتنا تكاد تكون متطابقة مع نتائج الدراسات الأجنبية وكأن دول العالم كله دولة واحدة لها ثقافة واحدة ومناخ واحد ونظم تربوية وتعليمية وصحية وإجتماعية واحدة.

أيضا وجدت خلال رحلتى فى العمل إصرارا لدى البعض على عدم خوض أى باحث فى بحث علمى إلا حينما يأتى بدراسات سابقة فى المجال الذى يجرى فيه دراسته فلماذا التبعية ؟ لماذا لا تكون البداية من عندنا ؟فالبداية تتطلب التفكير والتأمل وإعمال العقل وهذا هو الأساس فى أى تنمية .

المراجع

السيد أبو شعيشع(٢٠٠٥) الأسس البيوكيميائية للأمراض النفسية والعصبية :جامعة بنى سويف، مطبعة كلية العلوم .

جاردنر, هـ. (٢٠٠٤) اطر العقل: نظريات الذكاءات المتعددة ترجمة محمد بلال الجيوشي. الرياض: مكتب التربية العربي لدول الخليج.

سامية القطان (١٩٧٩) كيف تقوم بالدراسة الكلينيكية، الجزء الأول، القاهرة،الأنجلو .

صلاح مخيمر(١٩٨٠) الصحة النفسية ، القاهرة ، الأنجلو .

هشام الخولى(٢٠١٨) حياتى والأوتيزم ، القاهرة،الأنجلو .